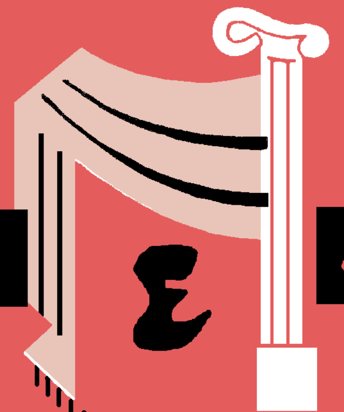
الينبوع

مسرحية

للكاتب الأمريكي

يوجين أونيل

ترجمها : صلاح عز الدين



مكتبة الفنون الدرامية

تصدرها
مكتبة مصر

يحررها
عبد الحليم البشلاوى

اهداءات ٢٠٠٣

الفنان / إلهامي حسن

القاهرة

مكتبة الفنون الدرامية

(٤)

دار مصر للطباعة
٣٧ (٩) شارع كامل صدقي "الفجالة"

مكتبة الفنون الدرامية (٤)

اليـنبـوع

مسرحية فى ثلاثة فصول

(١١ منظرا)

للكاتب الأمريكى :

يوچين أونيل

ترجمها :

صلاح عز الدين

تصدرها
مكتبة مصر

يحررها
عبد الحليم البشلاوى

مكتبة الفنون الدرامية

القصـــد من هذه المكتبة أن تسد ما بالمـكتبة العربية من فراغ كبير . فهى تســـتهدف ترجمة روائع المسرحيـــات العالمية وكل مايتصل بالفنون الدرامية والاذاعيـة من تمثيل وكتابة واخراج . واعل هذا هو أول مجهود منظم يبذل فى هذا السـبيل .

كتب تصدر تباعا

قطة على سطح من الصفيح الساخن

للكاتب الأمريكى : تنيسى وليامز

الشـــائعة

للكاتب الانجليزى : تشارلز مونرو

عيوب التأليف المسرحى

للنـــاقد الأمريكى : وولتر كير

مسرحية مرتجلة

الكاتب المجرى : فرينيك مولنـــار

الآنسة چوليا والأب

مسرحيتان للكاتب السويدى : أوجست ستريندبرج

هذه المسرحية

بقلم : عبد الحليم البشلاوى

فى اليوم الثانى من يناير عام ١٤٩٢ ميلادية ، دخل الجيش الأسبانى غرناطة ، وبذا انطوت من كتاب التاريخ تلك الصفحة الفريدة الرائعة التى سجلتها دولة العرب فى الأندلس . سقطت غرناطة فى يد الأسبان ، وكانت عامئذ آخر معقل بقى فى أيدى العرب فى ذلك الجزء من أوروبا ، فانهارت الدولة العربية الكبرى فى الغرب .

فى تلك الليلة ذاتها ، تبدأ حوادث هذه المسرحية . فى تلك الليلة نرى الفارس الأسبانى النبيل المغوار ، چوان پونس دى ليون ، يدخل بيت واحد من زعماء عرب الأندلس ليقيم فيه . فى تلك الليلة — ليلة النصر — نرى ذلك الفارس الأسبانى يبحث عن مجد جديد يضيفه الى أمجاده السابقة . كان الأمر قد استتب للأسبان فى بلادهم ، ولم تعد للعرب شوكة ولا نفوذ ، فلا حرب ولا ضرب ، ولا طعن ولا قتال ، ولا غزو ولا فتح ، وانى له ، وهو الفارس الشهم المخلص لوطنه وقومه ، أن يبقى قعيد الدار ، بعيدا عن ضجيج المعارك ؟

وسرعان ماتواتيه الفرصة التى كان يبغيها . فهذا هو كرستوفر كولمبس يزمع أن يقوم برحلته الثانية للوصول الى جزر الهند الشرقية عن طريق الابحار غربا . وها هو ذا فارسنا يصطحبه فى عام ١٤٩٣ . ويوفق كولمبس فى رحلته ، فيكتشف أمريكا ، ويعين چوان پونس دى ليون حاكما لپورتوريكو . ولكن هذا النصر الجديد

الذى يضيفه الفارس الأسبانى الى سجل انتصاراته ما يلبث أن ينقلب الى هزيمة مرة . وذلك الفوز يستحيل الى مأساة أليمة . فلماذا ؟

* * *

ان الاجابة عن هذا السؤال هى موضوع المسرحية . فهذه كلها حوادث تاريخية صحيحة . ورد ذكرها فى كتب التاريخ . ولم يبتدعها خيال يوچين أونيل . الا أن هذه الحوادث ترتبط فى المسرحية بأسطورة تاريخية مشهورة آمن بها الناس فى فترات مختلفة من تاريخ البشرية ، تلك هى أسطورة « ينبوع الشباب » .

كان الناس يؤمنون فى قديم الزمان بوجود ينبوع يعيد الشباب الى من يشرب منه أو يستحم فيه . وكان الناس يؤمنون فى وقت ما ، بأن ينبوع الشباب هذا هو أحد روافد نهر الفرات ، ويقال ان الاسكندر الأكبر ورجال جيشه استحموا فيه وشربوا منه . وفى العصور الوسطى شاع الاعتقاد بوجود ينبوع كهذا فى أحد بلاد الشرق البعيد . أما بعد اكتشاف أمريكا فقد اتجه الظن الى وجود هذا الينبوع فى جزر بهاما[1] . وكان العثور عليه أحد الدوافع التى حفزت « چوان پونس دى ليون » الى الرحيل مع « نانو » . وهو بالطبع لم يعثر على الينبوع ، لأن هذا الينبوع لا وجود له على الاطلاق . وانما الينبوع هنا رمز لذلك اللغز الذى حير ألباب البشر . ذلك اللغز الذى يكمن فيه سر الحياة والموت . لماذا يهرم الانسان ويشيخ ثم يموت ؟ أما من مهرب من الموت ؟ أما من سبيل الى الاحتفاظ بالشباب ؟ ولو كان المرء مؤمنا لما بدا له هذا لغزا على الاطلاق ،

---

(١) تقع مجموعة جزر بهاما فى المحيط الأطلسى فى مواجهة ساحل ولاية فلوريدا الأمريكية . وسيرد ذكر هذه الجزر فى سياق المسرحية .

ولما استعصى عليه الجواب . فالاجابة لن تستغرق طويل زمن .
ذلك لأن الايمان بالله ايمان بالروح واليوم الآخر . وما دامت هناك
روح ، وما دامت هناك دنيا وآخرة ، فلا بد من الموت ثم البعث
والنشور . وفى ذلك خير جواب .

فى مستهل المسرحية نرى چوان جنديا متعجرفا ظمآن الى
المجد والثروة والصيت . لا يفكر الا فى هذا ، ولا يأبه الا به .
يرفض الحب وينكره ، ويزدرى الشعر ويستنكره . وهو يحقق
كل أمانيه : المجد والثروة والصيت ، بعد عشرين عاما من رحيله
الى القارة الجديدة . ولكنه بعد أن حقق لنفسه ماأراد ، يرى نفسه
فريسة لدسائس الكنيسة التى تحاول خلعه من منصبه . ويرى
نفسه وقد تجردت من أى ولاء لأسبانيا . ويقع فى غرام ابنة المرأة
التى كانت تحبه شابا يافعا ، والتى لم يبادلها الحب . ولكن غرامه
هذا — غرام الشيخوخة — غرام يائس بائس ، فاذا به يجد فى
البحث عن ينبوع الحياة ، ويكاد يلقى فى سبيل ذلك حتفه . ولكننا
نرى فى النهاية ذلك الجندى المتعجرف الذى كان ظمآن الى المجد
والثروة والصيت ، والذى كان يرفض الحب ويزدرى الشعر ، نراه
قد انقلب شاعرا ، ونراه قد آمن بالبعث والخلود . وانقلبت **المادية**
فى قلب الجندى ، الى **روحانية** فى قلب المؤمن . آمن بأن :

الحياة ينبوع ،
دائما يتدفق ،
الى العلا ، ليمسك بضوء الشمس الذهبى ،
ويبلغ السماء اللازوردية .
يهوى ويسقط ،
ودائما يعود ،
ليقبل الأرض كى تزدهر الزهور .

* * *

هذه هى فكرة المسرحية .

وقد يراها بعض الناس فانتازى **Fantasy** حافلة بالمجردات والايحاءات . تعتمد على الخيال . عمادها أسطورة لايمكن أن يؤمن بها ذو عقل سليم . ولكننى أراها تعبيرية **Expressionistic** سخر فيها أونيل الحوادث والشخصيات لابراز وجهة نظر معينة والتعبير عن رأى معين . بل ان الطريقة التى عالج بها أونيل هذه الأسطورة ، طريقة بارعة كل البراعة ، جديرة بالاعجاب والتقدير .

وعنصر الرمزية متوافر كذلك فى المسرحية . فان شخصية چوان پونس دى ليون هى رمز تجسدت فيه شخصية الانسان بصفة عامة ، بترددها بين المادية والروحانية ، وتذبذبها بين الشعر والحب وبين المجد والصيت . كما أن النافورة نفسها أو الينبوع رمز لذلك الأمل الخائب الذى يسعى الانسان الى تحقيقه ، أمل الخلود المادى فى الحياة الدنيا .

وقد كتب أونيل هذه المسرحية فى عام ١٩٢٥ . ونثر فى سياق حوارها آراءه فى الاستعمار ، والفتح ، والتبشير ، والتعصب الدينى ، وهى كلها آراء جديرة هى الأخرى بالاعجاب . الا أنه كان يشير دائما الى العربى المنشد الذى ظهر فى بداية المسرحية بقوله « الكافر » مما يتناسب وجو الحوادث ، وقد استبدلت هذه الكلمة بكلمة العربى الا فى موضع أو موضعين .

يونية ١٩٥٩ **عبد الحليم البشلاوى**

« ... أنها رحلةُ مضنية حقا . مغامرون متشـوقون الى أسلاب وغنائم يحصلون عليها بطعنة أو طعنتين . نبـلاء يحلمون أحلاما جشعة مفعمة بثراء يؤول اليهم بفضل مولدهم . ورهبان يتحرقون الى آلات يعذبون بها رعايا مخلصين ، ويحولونهم بها عبيدا للـكنيسة . ويتولى قيادة هؤلاء أنت يا دون كرستوفر ، يا من ستنهب وتسلب لتبعث الحروب الصليبية من مرقدها . نهابون كلكم فردا فردا . أليس فينا واحد يرى فيها أرضا يشيد فوقها ويبنى ؟ سننهب وننهب الى أن يضنينا النهب ، فنخر فرائس سهلة أمام نهابين أقوى منا . ألا فليرحم الله هذه الأرض حتى يهلك آخر نهاب فى الدنيا ! »

يوجين أونيل

على لسان چوان پونس دى ليون



« ... أنهم لا يرون الا الأشياء وحدها ، لا ما وراء الأشياء من روح . قلوبهم موحلة كبركة خاضت فيها الغزلان . حكماؤهم يتحدثون عن اله جاءهم منذ زمن بعيد فى صورة بشر ، علمهم أن يحتقروا الأشياء ، علمهم أن يبحثوا عن الروح فىالأشياء ، فانتقموا منه وقتلوه . عذبوه ، وقدموه قربانا لشيطانهم الذهب . عقدوا صليبا من قطعتين كبيرتين من الخشب ، وغرزوا عصيا صغيرة فى يديه وقدميه ، ... وسمَّروه ... »

يوچين أونيل

على لسان نانو

رئيس احدى قبائل الهنود الحمر

يوجين أونيل

EUGENE GLADSTONE O'NEILL

١٨٨٨ — ١٩٥٣

هو بحق أبو الدرامة فى امريكا . كان الكتاب المسرحيون قبله فى الولايات المتحدة مجتهدين مقلدين ، أبعد ما يكونون عن الأصالة والعمق . فلما جاء وبرز ككاتب مسرحى واقعى أصيل ، كان هو الفيصل بين عهدين . عهد الجاهلية وعهد النور .

كان أبوه ممثلا مشهورا هاجر الى الولايات المتحدة من ايرلندة . وكان معبود عشاق المسرح ، ظل ١٦ عاما يمثل دور الكونت فى مسرحية « الكونت دى مونت كرستو » .

كتب عددا من المسرحيات لا يقل عن ٤٧ . منها القصيرة ذات الفصل الواحد ، ومنها العادية ذات الفصول الثلاثة ، ومنها الثلاثية **Trilogy** التى تضم ثلاث مسرحيات معا .

كان البحر يستهويه فجاب آفاقه ، وأفادته هذه التجربة فائدة كبرى تجلت فى مسرحياته .

ومن العجيب أنه لم يفكر فى الاتجاه الى الكتابة للمسرح الا بعد أن ألفى نفسه طريح الفراش فى احدى المصحات مريضا بالسل ، فى عام ١٩١٣ . ونال جائزة پوليتزر الأمريكية على أول مسرحية طويلة له ، وهى « وراء الأفق » . ونال هذه الجائزة مرتين بعد ذلك . كما نال جائزة نوبل للآداب فى عام ١٩٣٦ .

وبالرغم من هذا الانتاج الدرامى الغزير الذى خلفه يوچين أونيل ، فاننى أرى أن أروع مسرحياته تلك التى أوصى ألا تنشر الا بعد وفاته ، وهى مسرحية « رحلة النهار الطويلة الى الليل » Long Day's Journey into Night ، وهى سيرة ذاتية قدم لنـا فيها حياته مع أسرته فى أسـلوب واقعى صادق رائع أصيل . وهى خير ما يمكن أن يقدم لعشاق الدرامة ودارسـيها كنموذج للمسرحية الواقعية . ومن يقرأها يلم بالكثير من الأطوار الغريبة التى مر بها أكبر كتاب المسرح الأمريكى .

المحرر

اليَنبُوع

المنــاظر

الفصل الأول

المنظر الأول — فى فناء دار ابن أسود ، بغرناطة فى أسبانيا — الليلةالتىسلم فيها العربغرناطة، عام١٤٩٢م .

المنظر الثــانى — السفينة المفقود لواؤها لكريستوفر كولمبس ، فى آخر يوم من رحلته الثانية ، عام ١٤٩٣ .

الفصل الثــانى

المنظر الثالث — فناء دار الحكومة فى « بورتوريكو » ، عصريوم ، بعد عشرين عاما أو أكثر .

المنظر الرابع — غرفة الأسقف مننديز فى دار الحكومة — ذات مساء ، بعد ثلاثة أشهر .

المنظر الخامس — زنزانة سجين فى دارالحكومة ، فىنفس الوقت .

المنظر السادس — نفس المنظر الثــالث — والزمن ، عقب المنظر الخامس مباشرة .

الفصل الثالث

المنظر الســابع — جانب من الشاطىء علىساحلفلوريدا — ذات ليلة بعد أربعة أشهر .

المنظر الثـامن — نفس المنظر السابق — ظهر اليوم التالى .

المنظر التاســع — جانب من الغابة — تلك الليلة .

المنظر العــاشر — نفس المنظر السابق — بعد ساعات .

المنظرالحادىعشر — فناء الدير الدومينيكى فى كوبا — بعد بضعة أشــهر .

الشخصيات

ابن أســود	زعيم من عرب الأندلس
چوان پونس دی ليون	Juan Ponce de Leon
پدرو	خادمه Pedro
ماريا دی كوردوڤا	Maria de Cordova
لويس دی ألڤاريدو	Luis de Alvaredo
يوسف	منشد من عرب الأندلس
دييجو منديز	راهب فرنسسكانی Diego Menendez
ڤسنتی دی كوردوڤا	زوج ماريا Vicente de Cordova
الونزو دی أوڤييدو	Alonzo de Oviedo
مانويل دی كاستيللو	نبــــلاء Manuel de Castillo
كريستوڤال دی ميندوزا	Cristoval de Mendoza
كرستوفر كولمبس	Christopher Columbus
جنــدی	
الراهب كويسادا	فرنسيسكانی Friar Quesada
بياتريز دی كوردوڤا	ابنة ماريا و ڤسنتی Beatriz de Cordova
نانــــو	رئيس احدى قبائل الهنود Nano

رئيس احدى قبائل الهنود فى فلوريدا
طبيب القبيلة الساحر
شاعر من مدينة كاثاى
هندية عجوز من جزر باهاما
راهب دومينيكى
كبير الرهبان الدومينيكيين فى كوبا
چوان ابن شقيق چوان پونس دى ليون
Juan

نبلاء ، رهبان ، جنود ، بحارة ، هنود
أسرى من بورتوريكو ، هنود من فلوريدا

تجرى حوادث المسرحية فى أواخر القرن الخامس عشر ، وأوائل القرن السادس عشر .

الفصل الأول

المنظران ١ و ٢



المنظر الأول

(فناء قصر ابن أسود فى غرناطة .

يمثل القطاع مثلثا قائم الزاوية ، رأسه فى المؤخرة ، الى اليمين . الى اليسار ، فى الوسط ، بوابة ضخمة تؤدى الى الشارع . الى اليمين باب يؤدى الى الدار . وفى وسط الفنـــاء نافورة رائعـــة من الرخام الأخضر عليها رســـوم من البرونز المموه بالذهب لبشر وحيوان . الرواق المستدير حـــول الفناء ينهض على أعمـــدة من الرخام المصقول ، طليت أجزاء منها بماء الذهب . نقوش عربية وآيات قرآنية ، باللون الأحمر ، والأزرق ، والذهبى ، على المسطحات العلوية فيما بين العقود التى تبدو كحدوة الحصان فى تفرعها من الأعمدة . وفوق ذلك نوافذ جناح الحريم . ويمكن رؤية السماء بنجومها ، فوق المنزل . الوقت فى بداية الليل .

عند رفع الستار ، يبدو الفناء خاليا يخيم عليه السكون فيما عدا خرير الماء الصادر من النافورة . يسمع طرق مرتفع ، على نحو آمر ، كأنما يدق أحدهم بمقبض سيفه على البوابة . يدخل ابن أسود من اليمين ، وهو عربى نبيل المظهر ، متقدم فى السن ، تغطى أسفل وجهـــه

لحية طويلة بيضــاء ، ويفصح تعبير وجهه عن كبرياء شديدة يشوبها حزن واذلال . يخرج من البوابة ، ثم يعود ، متقدما ((چوان پونس دى ليون)) وخادمه ((پدرو)) . چوان نبيــل أسبانى ، فى الواحــدة والثلاثين من عمــره ، طويل القــامة ، حسن المظهــر ، يرتدى زيه العســكرى كاملا . ســحنته مترفعة زاخرة بأمارات الشجاعة وروح المغامرة الرومانسية ، ولكنها توحى مع ذلك بالمقدرة المنظمة المدربة ، والثقة ، والتحكم فى الذات ـ طبيعــة الرجل المفكر الطموح هى التى تسيطر فيه على شخصية الحاكم الرومانسى . أما ((پدرو)) فشاب بليد المظهر)

چوان : **(وهم يدخلون ، مخاطبــا ابن أســود)** معذرة أيها السيد العربى .

ابن اسود : **(فى ترفع)** هل ستقيم هنا ؟ **(ينحنى چوان مؤمنا)** مرحبا بك اذن ، ما دامت ارادة الله قضت أن تكون أنت الفاتح القاهر .

چوان : لست هنــا فاتحا قاهرا ، انما أنا غريب ممتن لكرم الضــيافة .

ابن اسود : **(دون أن يلين اطلاقا)** أنت كريم . لقد رأيتك تقاتل فى الميدان . أنت شــجاع . ان مرارة الهزيمة تزول عندما يكون العدو نبيلا **(محدقا صوب النافورة فى غم ومرارة)** ان ميــاه النافورة تتساقط ، ولكنها دائما

تعلو من جديد أيها السيد الأسبانى . هذه سنة الأقدار . (**فى ورع**) « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شيء قدير » (**بقسوة وتحد**) ومهما يكن المنتصر ، فلا غالب الا الله . .

چوان : (**فى برود وجفاء**) ان جلدك يا سيدى يرفع منزلتك (**وكأنما ينهى الموضوع ــ يقول فى اقتضاب**) انا أنتظر قدوم أصدقاء لى . هل يزعج هذا أهل بيتك ؟ اذا كان الامر كذلك . . .

ابن‌أسود : (**فى برود**) بيتى هو بيتك . هكذا قضت مشيئة الله . (**ينحنى فى ترفع ثم يخرج من اليمين**)

چوان : (**يهم كأنما ليستبقيه ــ ثم يهز كتفيه**) ما عسانى استطيع أن أفعل من أجله ؟ (**يكرر ، ساخرا ، عبارة ابن أسود ثم يقول**) هذا قضاء اسبانيا ان لم يكن قضاء الله . (**وقد رأى پدرو مستندا الى الحائط فى كسل ، وهو يحدق فى النافورة بخمول ــ وقد أعجبه ذلك**) أيها الجلف الكسول ، أتدفعك النافورة أنت أيضا الى الاستغراق فى الحلم (**بلهجة آمرة**) هات النبيذ . سيكونون هنا بعد قليل .

پدرو : أمرك يا سيدى (**يخرج . چوان يذرع المكان جيئة وذهابا وهو يدندن . يعود « پدرو » ويقترب من سيده فى حذر**) سيدة يا سيدى !

چوان : (**متجهما**) أهى وحدها ؟ (**يومىء پدرو مؤمنا ، ويبتسم چوان فى سخرية**) لابد أنك أخطأت . قل

لها أننى لست هنا (**يستدير پدرو ليخرج ، فتظهر « ماريا دى كوردوڤا » تحت عقد البوابة ، وعلى وجهها نقاب أسود سميك**)

ماريا : (**بصوت خافت مرتعش**) چوان !

چوان : (**وقد ارتد على الفور فارسا شهما ، يشير الى « پدرو » لينصرف ، وينحنى انحناءة كبيرة وفى صوته سخرية**) أيتها السيدة الجميلة ، انك تسبغين على شرفا لا أستحقه .

ماريا : (**متعبة**) اعفنى من سخريتك يا چوان (**ترفع النقاب عن وجهها . انها سيدة ذات مظهر أخاذ ، فى الثامنة والثلاثين أو فى الأربعين ، ولكن السخط والأسى قد أبرزا عمرها على وجهها**)

چوان : (**مندهشا**) ماريا ! (**ثم فى ذعر صادق**) رباه !

ماريا : (**صوتها يتهدج**) چوان ، لقد اضطررت الى المجىء .

چوان : (**متجهما**) زوجك أخى فى السلاح . والليلة سيكون هنا ضيفا من ضيوفى . كل كلمة تقولها الآن تسىء الى شرفى .

ماريا : (**فى نبرة حزن بالغ**) ماأقساك ! كان لزاما أن أتحدث اليك على انفراد . هذه فرصتى الوحيدة . سأترك البلاط غدا .

چوان : (**بارتياح واضح**) آه !

ماريا : (**تحملق فيه متوسلة بشكل مؤثر . يتجنب عينيها**) يا لى من حمقاء ... (**تكاد تنتحب كأنما الاعتراف ينتزع منها انتزاعا**) .. أن أحبك يا چوان (**تقوم بحركة صوبه ، ولكنه يتراجع ، مترفعا ، باردا**) .

چوان : **(مقطبا)** هذه الكلمة .. اننا لم ننطقها من قبل أبدا . لقد كنت دائما .. صديقة لى . **(بعد تريث ، فى اخلاص عميق)** لماذا تحطمين صداقتنا النادرة من أجل كلمة يتشدق بها كل منشد جوال ؟ **(ثم فى ضيق)** الحب .. الحب . اننا نزعم أن الحب وحده هوالسبب الذى نعيش من أجله . ما أسخف هذا ! ان الحياة أنبل من ترهات الشعراء .. والا ، فهى لا شىء !

ماريا : **(وقد جرحت وغضبت)** لو كان عليك أن تحارب من أجل الحب كما تحارب من أجل المجد !

چوان : **(وقد أخذه الألم فى نبراتها ، يركع ويقبل يدها ، نادما)** اغفرى لى . أنا أفضل الموت على أن أجلب الأسى الى قلب طيب كقلبك . اننى أضرع اليك أن تبقينى الى الأبد فى قلبك . ولكن كصديق . كما كان الأمر دائما .

ماريا : **(بشهقة ألم)** آه **(تخلص يدها من يده . وبتنهدة عميقة)** أدعو الله أن يحيطك علما بأسرار القلوب .

چوان : **(ينهض . يحاول بوضوح تغيير الموضوع)** واذن فستغادرين البلاط .

ماريا : لقد أجابتنى الملكة الى رغبتى فى الاعتزال والعودة الى قرطبة ، **(بحماس عاطفى)** لقد سئمت البلاط . أنا أتوق الى الأشياء البسيطة . اننى أضرع الى الله أن أعود جديرة بما كنت أعرفه وأنا فتاة من حب خالص لله . لابد أن ألتمس عنده السلام ! **(بعد هنيهة)** لقد أصبحت غرناطة لنا . وتم طرد العرب

من أسبانيا . وأنتهت الحروب . فماذا أنت فاعل الآن ، يا چوان ؟

چوان : السلام معناه الركود ، فرسان يستريحون فى استرخاء ، وأغان ، وورود ذابلة . أما أنا فلابد أن امضى فى سبيلى .

ماريا : الى أين تذهب ؟

چوان : (**يبتسم لفكرة تداعب خاطره**) ربما ذهبت مع هذا الرجل القادم من چنوا ، كرستوفر كولمبس ، حين يقلع باحثا عن الممر الغربى الى كاثاى .

ماريا : (**منزعجة**) ولكنهم يقولون انه مجنون .

چوان : (**جادا الآن**) سواء أكان مجنونا أم عاقلا فانه يحلم بالمجد . سمعت أنه يعد العدة ليفتح لأسبانيا مملكة خان الأكبر الشاسعة التى رآها ماركوبولو .

ماريا : أتتخلى عن مركزك فى البلاط الآن بعد أن جلبت اليك مفاخرك مثل هذه الحظوة ؟ ما من أحد يحطم حياته هكذا ، دون تعقل ، الا أن يكون قد انتابه اليأس ! (**فى غيرة**) لابد انك هارب من الحب . (**تسخر فى شراسة**) أهى امرأة تثأر للنساء ..؟ خبرنى ، ما اسمها ؟

چوان : (**بضحكة ساخرة**) الحب ، الحب ، دائما الحب ! ألا يمكن أن يوجد فى نظرك دافع آخر ؟ ! الا فليرحم الله النساء ! !

ماريا : (**بعد هنيهة — فى حزن**) فليرحمنى الله — لأن الرحمة هى ماتقدمه أنت لى . (**واذ يبدو ان چوان على وشك أن يحتج فى ضجر**) لاتنكر ذلك ياچوان .

انت تهزأ بى فيما تدعيــه من ازدراء للحب ! أنت تريد أن تهون على مذلتى . هل تظننى غبية ؟ أما احببت اخريات ؟ اننى أستطيع ان أعد عشرة . .

چوان : ماريا !

ماريا : اتظن أننى لم أتكهن بالحقيقــة . .؟ كانت الأخريات فى ســن الشباب ، بينما أنا . . . وحبى يبدو لك جديرا بالرثاء !

چوان : **(يركع ويمسك بيدها . وفى حميــة عاطفية)** كلا ، ايتها الصديقة العزيزة ، كلا . أقسم لك على ذلك . **(بعد هنيهة)** ان ما تسمينه حبا لم يكن أكثر من نزوات طارئة ــ احلام ليلة أو ليلتين . مغامرات شهوانية ، وربما كانت لفتات غرور وخيلاء ، ولكننى لم أشــعر بالحب أبدا . أسبانيا هى خليلتى التى أمنحها قلبى . اســـبانيا واطماعى انا ، التى هى اطماع اسبانيا . اتفهمين الآن . .؟

ماريا : **(فى حزن)** كلا يا چوان . **(تنهض)** انا ادرك أننى اتقدم فى السن ، وان الحب قد انتهى أوانه بالنسبة لى ، واننى أشــقى فى وحــدتى . لو كان الله قد وهبنى طفلا ! ولكن الله يعاقب بعدله . لقد اطلع على خطيئتى المستترة . لقد احببتك يا چوان ، سنوات ، ولكننى لم أجرؤ على أن اطلعك على سرى الا فى العام الأخير ، عندما دب اليأس الى قلبى وهو يشعر بالشــباب يولى عنه . والآن ، وداعا حتى تقضى ارادة الله بالموت . يجب الا نلتقى ثانية !

چوان : **(منتجهما)** كلا . **(بعاطفة)** شد ما أتمنى لو لم تقولى لى هذا .

ماريا : **(برقة)** اذا كنت ما تزال صديقى فلن تتمنى ذلك. لقد كان هذا آخر ما أكفِّر به .. أن تعرف . والآن وقد أخبرتك ، فانني أشعر بالحرية ، لأن قلبى مات . ولم تعد لى غير روحى ، وهى التى تعرف محبة الله التى ترحم ولا تعذب . وداعا مرة أخرى ياچوان ! **(يركع ويقبل يدها. فتضع يدها الأخرى على رأسه كأنها تباركه)** أنت نبيل . أنت روح الشجاعة نفسها ، رجل الرجال . سترحل بعيدا ، جنديا من جديد .. وحالما . وليكن الله فى عونك اذا اصطدم هذان فى نفسك . ستكون كل صلواتى من أجل نجاحك . ولكننى سأضيف قائلة « أيها الرب المنقذ ، دعه يعرف الرحمة والحنان ليكونا عوضا له عن شبابه الجامد حين يولى » **(تستدير بسرعة وتنصرف)**

چوان : **(يتبعها بصره فى تفكير حزين هنيهة ـ ثم يتنهد بعمق ويهز كتفيه)** ان الزمن يلوث بالضعف كل شىء ، حتى النقى المستعصى **(يدخل « لويز دى ألفاريدو » من البوابة ، وهو نبيل يبدو داعرا ، ويكبر چوان ببضعة أعوام قليلة ، وجهه عادى مألوف ، ولكنه بالغ الجاذبية فى نبله وفيما يبدو عليه من أمارات المرح الساخر والكلف بالضحك ، مهمل الزى ، وثمل قليلا)**

لويز : **(ساخرا)** يا عاشق المجد ومعشوق النساء ، سلاما !

(يتقدم نحو ((چوان)) الذى أنتبه على أصوات آتيـة من البوابة ـ فى همس متعجـل محـاذر)
يا للشيطان يا چوان ، هل فقدت رشدك ، أم هى التى فقدت رشدها ؟ ! لقد تبينت شخصيتها بينما كان ((ڤسـنتى)) ورائى على بعـد عشر خطوات فحسب . **(ساخرا من جديد)** الحيطة أيها الفارس النقى السمعة ، الحيطة ! !

چوان : **(متجهما)** أسكت ، انت تظلمها وتظلمنى ! **(تسمع أصوات نزاع غاضب مرتفع آتية من خارج المسرح)** ما هذا الشغب ؟

لويز : هـذا رجلى العربى **(يفسر الأمر لچوان بسرعة)** زميل شاعر ، منشد شعبى جوال . وجدناه يجرى هائما فى الطرقات ، ينـاجى النجوم ويقول لها ان ملكهم ((أبا عبد الله)) قد باع روحه لجهنم عندما سلم للعدو **(باعجاب)** ويا لله يا چوان ، كيف كان يلعن ! أوه .. انه منشد ثمين القدر . وكما ينبغى لشاعر على شاعر ، فقد أمسكت بخناقه ، وجررته معنا . كان صديقنا ((دييجو)) يريد أن يحز رقبته فى سبيل الكنيسـة ، لو لم أتدخل أنا فى الأمر .

چوان : **(مبتسما)** كما ينبغى لمجنون على مجنـون ، هه ؟ ولكن فيم احضاره للنعيق هنا ؟ !

لويز : ان معه عودا . وأنا أريده أن ينشد لنا بعض شعره . **(فى زمجـرة طروب)** هـذا الحيوان لا يتـكلم الا العربية . ولو كان ماكرا فسينشد فوق رؤوسـنا من اللعنات ما هو حرى بأن يجعل ماء هذه النافورة

يجف ، ولن يكون منـا من يفهم قوله سـواى .
(فى ابتهاج عظيم) سيكون ذلك ممتعا يا چوان !
(يشتد عنف الضجيج فى الخارج) يا الله ، سيقتل
« دييجو » شاعرى ، بعد كل ماتحملت من مشاق !!
(يهم بالانصراف متعجلا ـ يقف عند المدخل) تذكر
ياچوان أن « ڤسنتى » ربمايكون قد عرف . . السيدة!

چوان : **(يومىء ، ويقطب)** فليذهب الشـيطان بالنسـاء
جميعا . **(يخرج لويز ، ويدخل « پدرو » حاملا
سلتين كبيرتين مليئتين بالزجاجات . يضعهما على
الأرض ، فى المؤخرة) .**

اشرب وانس هذا الـكلام الفارغ المحزن . هات
الوسائد . سنجلس الى جوار النافورة . **(يخرج
پدرو متجها الى المنزل ، فى اليمين . ويدخل لويز
من جديد ، ماسكا « يوسف » من ذراعه. ويوسف
عربى عجوز أعجف ، يلبس ملابس العامة ، ولكنه
يضع على رأسه عمامة تدل علىأدائه فريضة الحج .
عيناه الغائرتان تتاججان بالحقد ، ولكن التعب قد
نال منه حتى بدا مستسلما لمصيره . ويتبعهمـا
« دييجو مننديز » ، وهو راهب فرنسيسـكانى
يقارب « چوان » و « لويز » فى العمر ، ذو وجه
طويل شاحب ، وفم دقيق قاس ، وعينين صارمتين ،
شأن المتعصبين . وهو الآن يجيش بسخط وغضب
عاجزين . وفى رفقته « ڤسنتى دى كوردوڤا » ،
نبيـل فى الخامسـة والأربعين ، عسكرى الهيئة ،
اشيب الشعر ، عبوس الوجه . ويتبع هؤلاء النبلاء**

الثلاثة «أوفيديو» و «كاستيللو» و «ميندوزا» ، وهم نموذج الفرسان المغامرين من أبناء ذلك العصر . قساة ، شجعان الى حد التهور ، لا نصيب لهم من التعليم على الاطلاق . انهم فرسان « الصليب » ، ولكنهم يجهلون ، ويحتقرون ، أول مبادىء المسيحية الحقة وأبسطها ، ولكنهم مع ذلك يتخذون هذا المظهر البهى)

منديز : **(غاضبا)** انا احتج اليك ياچوان. انه لكفر وهرطقة ان يسمح بوجود هذا الكلب بينما نرفع الى الله شكرنا على النصر !

چوان : **(يحدق صوب العربى لحظة ، فى اهتمام — ثم يقول بلا اكتراث)** لست ارى تدنيسا فى هذا يا دييجو . . اذا كان سيغنى لنا ، لا أن ينعق **(مستديرا الى فسنتى يفحص ملامح وجهه بتدقيق — ثم بلا اكتراث)** ماذا تقول يا فسنتى . . ؟

فسنتى : **(ينظر اليه نظرة شك كالحة — فى برود وبلهجة ذات مغزى)** لا اقول شيئا . . . الآن .

چوان : آه ! **(يتبادل نظرة مع لويز)**

أوفييدو : أما أنا فأقول دعوه يبقى ، فقد يسلينا .

كاستيللو : **(بابتسامة قاسية)** ربما أفلحنا ، بحد السيف ، فى اقناعه بالغناء لنا عن المكان الذى خبأ فيه قومه الذهب .

ميندوزا : كلماتك ملهمة يا مانويل .

لويز : **(باحتقار)** ماديون ! ! انكم لتنهبون السماء وتسهرون القمر من اجل الفضة ! ! چوان ، اين

نبيذك ..؟ **(يظهر بدرو حاملا الوسائد والكئوس لكل منهم . يفتح الزجاجات ، ويملأ كئوسهم الى آخرها . لويز لا يقنع بالكأس ، فيختطف منه زجاجة ويشرب منها)**

چوان : **(مراقبا فسنتى فى يقظة)** فلنشرب **(يأخذ كأسا من بدرو)** نخب ملوكنا العظام ، ونخب أسبانيا ! **(يشرب)**

مننديز : ونخب الكنيسة ! **(بغضب)** ولكننى لن أشرب حتى تبعدوا عنا هذا العربى .

ڤسنتى : أنا أوافق .

چوان : **(بنفاد صبر)** فليذهب العربى يا لويز ــ ما دام دييجو جادا هكذا .

ڤسنتى : **(ممتعضا فى برود)** وأنا ؟ **(چوان يكاد يرد عليه فى غضب ، ولكن لويز يسرع بالتدخل)**

لويز : تشش ! ! ! ! سأغنى لكم أغنية **(يطلق سراح العربى ، مشيرا الى المؤخرة)** اذهب الى هناك أيها الزميل المغنى . واسترح **(يذهب العربى الى اليمين ، فى المؤخرة ، ويجلس القرفصاء فى الظل الى جوار الحائط . لويز يغنى)**

الحب زهرة ،
دائما مزدهرة .
الحياة ينبوع ،
دائما يتدفق ،
الى العلا ، ليمسك بضوء الشمس الذهبى ،
ويبلغ السماء اللازوردية .

يهوى ويسقط ،
ودائما يعود ،
ليقبل الأرض كى تزدهر الزهور .
(يصفقون جميعا عندما يفرغ من أغنيته)

چوان : هذا رائع أيها السيد الشاعر ولكنه كذب **(ساخرا)** الحب ، الحب ، دائما الحب ! ألا فليذهب الشيطان بزهرتك ! ألا تفيض الينابيع الا لتنبت أزهاراً تزدهر يوما ثم تموت ؟

لويز : فلتزأر ايها الأسـد ! ولكنك لن توقظ حلمى بأن الحياة الحب .

چوان : استمع اليه يا ديجو ! اننا نعرف أن غرامه الوحيد هو أمه العجوز ، ومع ذلك فان من يستمع الى اغانيه يظن انه عاشق أعظم من .. من ...

ڤسنتى : **(مقاطعا فى سخرية)** منك أنت ، يا دون چوان ؟

چوان : **(مستديرا اليه . فى برود)** كثيرا ما تطلق الشائعات أسماء زائفة ، ولكنها لا تخدع الا عجائز النساء .

ڤسنتى : **(يمتقع وجهه)** أتعنى حقـا هذه ... الاهانة ؟ !
(تمتد أيديهما الى مقبضى سيفيهما . يبدو الاهتمام والحماس على النبلاء . يقفز لويز واقفا بينهما)

لويز : بالله عليكما ! هل أحدكما عربى ؟ **(ويرفع زجاجته)** فلنشرب ثانية نخب أسبانيا ! !

أوڤيدو : ونخب الحرب القادمة !

كاستيللو : ولتكن عاجلة !

ميندوزا : ومعها عالم بأسره للسلب ! غننا أغنية فى هذا يالويز !

لويز : ظمئى يمنعنى من ذلك . ولكن صبرا ، لقد نسيت

العربى. فلأستخدم معه الاقناع والترغيب. **(يذهب الى المؤخرة صوب المغنى ويسمع وهو يتحدث اليه بالعربية)**

چوان : كنا نتحدث عن حروب قادمة . ولكن ، مع من ؟

أوڤييدو : مع أى خصم !

چوان : ولكن نحن. أنا اظن أنها ستدور فى بلاد تقع وراء بحار غريبة ــ شيبانجو ، وكاثاى ــ مدن الذهب التى رآها ماركوبولو .

اوڤييدو : ولكن من الذى سيقودنا اليها ؟

چوان : كرستوفر كولمبس طبعا . **(يضحكون جميعا)**

كاستيللو : هذا الصعلوك من أبناء چنوا ! ! هذا يقود أسبانيين ! انه رجل مجنون . انه يزعم أن الأرض كروية ــ كالبيضة . **(يضحكون جميعا)**

چوان : **(بلهجة مثيرة)** لقد رأيته اليوم . كان ممتطيا بغله الذى فتكت به البراغيث ، وكأنه احد القياصرة فى موكب النصر ! كانت عيناه مليئتين بمدن الذهب !

كاستيللو : چوان : أنت تضفى عليه خيالك. هذا الرجل معتوه!

لويز : **(غاضبا)** بل أنت المعتوه ان تظن هذا . ولكنه مع ذلك ، سيكتشف لأسبانيا الطريق الغربى الى الشرق.

كاستيللو : أو يزل من فوق حافة الأرض ! واراهن انك لن تقبل الذهاب معه حتى مقابل ذهب جزر الهند كله .

لويز : ستخسر الرهان .

چوان : أنا أنوى الذهاب معه فعلا ، **(الكل يندهشون)** ولكن ليس فى رحلته الأولى . فانني لكى أضع سيفى رهن عمل ، لابد أن أضمن أنه سوف يكون لمجد أسبانيا.

ولا جدوى هناك فى المقامرة بالحياة على أحلام .

لويز : لا جدوى لشيء الا فى هذا .. أنت من أبناء الشرق أيها العربى . حدثنا عن الخان الأكبر ، وملك شيبانجو وكاثاى وكامبولوك ، وعن المنازل بسقوفها المصنوعة من الذهب ، وعتباتها المرصعة بالزمرد . لابد أن قومك قد سمعوا بهذه الأعاجيب .

ميندوزا : نعم ، فليتغن بهذه الكنوز . **(ولكن العربى يظل صامتا)**

لويز : انتظر ، سأتحدث اليه . **(يذهب الى المؤخرة ، ويتكلم مع العربى الذى يرد عليه)**

مننديز : **(ثائرا)** هذا كله خيانة . ان هذا الحيوان قد نقض السلام ، والعقوبة هى الموت .

چوان : **(ساخرا)** فليتغن بالكنوز يا ديجو . ان الكنيسة نفسها تحب الذهب !

لويز : **(عائدا ، سعيدا مبتهجا)** انه موافق يا چوان .. لأننى زميل له . سيتغنى بكنوز الشرق . انها قصة رواها لأبيه شاعر جوال قدم من كاثاى مع قافلة . **(يسرع الجميع الى الاصغاء باهتمام ما عدا «دييجو» الساخط و « فسنتى » المتجهم المنشغل الخاطر . يعزف العربى بضعة أنغام قليلة على العود)** هس . **(يبدأ العربى فى الترنم بالشعر ، يصاحبه بالعزف على العود . وتأخذهم ، فى البدء ، غرابة النغم ثم يبدو عليهم بعد ذلك نفاد الصبر)**

أوفييدو : يا لله ، كأن الذئب قد أصبح راعيا مريضا !

لويز : هس .

كاستيللو : **(نافد الصبر)** ماذا يغنى ؟

لويز : **(مسحوراً . بغموض)** هس ! هس !

منديز : **(ينهض واقفا عند ما ينتهى غنـاء العربى فجأة . بصوت أجش)** هذه صلاة شيطانية !

لويز : **(يضع يديه أمام عينيه ثم يحملق صوب النافورة فى هيئة حالمة)** لقد غنى عن كنوز ــ ولكنها أغرب مما تتوقون اليه . فهناك فى بلد بعيد عن بلاد الشرق ــ كاثاى أوسيبانجو لستأدرى ــ بقعة جعلتها الطبيعة بمعزل عن البشر وباركتها بالسلام . انها غيضـة مقدسة . كل شىء فيها يعيش فى ذلك الوئام القديم الذىكان قبل أن يظهر الانسان علىالأرض . استقر فيها الجمال رائعا أخاذا . كل صوت موسيقى للأذن؛ وكل منظر بهجة للعين . الأشجار تثمر فاكهـة من ذهب . وفى وسط الغيضة ينبوع ... أجمل مما تتصوره أحلام البشر . وفى مجموعة ألوانها تنعكس الحياة بكل جوانبهـا . وفى مياه هـذا الينبوع تمرح العذارى وتغنى حولها لا تتركها ، وكل متعتهـا أن تبقى بها حتى تصبح جزءا منها . هذا هو ينبـوع الشباب ، هكذا قال لى . ولقـد عرف حكماء هذه البلاد النائية ذلك الينبوع منذ عصور بعيدة . وهم يجعلون زيارته قبلتهم الأخيرة عند ما يرهقهم العمر وتثقل عليهم حياتهم . هنا يشربون فتسقط عنهم الأعوام كما يتهدل الثوب العتيق . ويعود الصبا الى الذهن والبدن ، فيقفز هؤلاء الشباب ، الذين كانوا كهولا ، وينضمون الىالعذارى يرقصون.ثم يعودون

بعد ذلك الى الحياة ، ولكن بقلوب مطهرة ، لم تعد متاعبهم القديمة ترهقهم ، وقد زال عنهم الى الأبد ما كان يثقل كواهلهم من همـوم ، بل أصبحوا مقدسين يبجلهم قومهم . (**متنهدا**) هذه حكايته يا أصدقائى ! ولكنه اضاف الى ذلك أن من العسير العثور على هذا الينبوع . فما يكشف الينبوع عن نفسه الا للصفوة المختارة من الناس .

منندیز : (**مهتاجا**) هذه وتنية !

أوڤيدو : أهذا كنزه ؟ ! ! انه ، والله ، يهزأ بنا !

لويز : حمقى!! الجمال فيه هباء. ان أرواحكم ترن كالنحاس. (**منندیز یتسلل الى الخلف ، خطوة فخطوة ، صوب العربى . يمسك لويز بزجاجة**) هيــا ، فلنشرب ولنذهب جميعا الى كاثاى مع الدون كرستوفر . لكم أن تحرثوا الأرض وتحفروها هناك بحثا عن الروث . أما أنا فسأبحث عن هذا الينبوع .

چوان : (**يشرب ـ ثملا بعض الشيء**) اشرب وانس الهراء المقبض ! يا للشيطان ! كانت أغنيته تطربنى الى أن جئت أنت فحولتها الى هذر العجائز هذا . الشباب!! هل الشباب كنز ؟ ! وهل نحن اذن جميعا ، عدا « ڤسنتى » ، ثروة لا تقدر ؟ ! قسما بدم المسيح ، يكفى المرء أن يلقى نظرة ليرى كم نحن فقراء !

لويز : فقراء فى الروح ! انتى افهمك يا چوان .

چوان : ينبوع الشباب ! كان الله فى عوننا . ثم الحب ايضا ! كنت أتمنى لو تغنى ، بدلا من هذا ، بجيوش الخان الأعظم ، وسلطانه . (**ثم جانبا الى لويز**) دائما تروى

الحكايات لمن لا يقدرها . لقد كان هنا رجل يتمنى أن يشترى باللآلىء قطرات من ذلك الينبوع نفسه !

ڤسنتى : **(وقد زحف الآن ناحية جوان فى اللحظة المناسبة ليسمع الكلمات الأخيرة ـ فى اهتياج بارد)** منذ لحظات كنت تعيرنى بالسن . والآن تجرؤ ... **(يصفع جوان على وجهه . ويستل كل منهما سيفه)**

لويز : **(تحاولا التدخل)** أستحلفكم بالله أيها الأصدقاء !

أوڤييدو : **(باهتمام شديد)** مبارزة ! ! **(يردد الآخرون هذا . وفجأة ترتفع صرخة متحشرجة من مؤخرة المسرح . ويظهر مننديز خارجا من الظلال ، وفى يده خنجر ، وعلى وجهه أمارات انتصار متعصب متهوس . ويقف الآخرون مبهورين وقد نسوا المبارزة)**

مننديز : **(يغمد خنجره)** ذبحت الكلب ! آن الأوان لذلك !

لويز : أيها المتعصب المنكود ! ! **(وفى غضبه يحاول أن يلقى بنفسه على الراهب ، ولكن جوان يمسك به ويضطره الى الجلوس على احدى الوسائد . ينهار لويز باكيا)**

مننديز : **(باردا فى ازدراء)** ماذا ! ؟ جندى من جنود المسيح يبكى على عربى ! !

جوان : **(متجهما)** صمتا يا دييجو ! **(ثم يقطب وجهه ـ فى اقتضاب ، وفى لهجة من ينهى موضوعا على نحو يسكت كل احتجاج)** ان مرحنا يخيم عليه طالع نحس ! انه ملوث بالدماء ! أسعدتم مساء . **(مستديرا الى ڤسنتى)** الى الغد ! **(ينحنى « ڤسنتى » وينصرف بصحبة مننديز . ومن خلفهما تسير جماعة النبلاء الشبان ، وهم يصخبون بالنقاش حول المبارزة القادمة ..)**

جوان : **(يعبر المسرح نحو لويز ويضع يده على كتفه ساخرا ولكن فى نبرة ملاطفة)** هيا يا لويز ، لقد مات أخوك المنشد ، لن تنفعه دموعك . بل لعله الآن يشرب من ينبوع الشباب فى أرض الأحلام — هذا اذا لم يكن فى الجحيم .

لويز : **(رافعا رأسه)** جوان ، هل تهزأ دائما بالجمال ، بينما قلبك يقول انك تكذب ؟ !

جوان : **(مقطبا)** ان فى قلبى وطنى أسبانيا — وطموحى . وكل ماعدا ذلك ضعف . **(مغيرا لهجته — بلا احتفال)** نعم ، لقد كنت مصيبا يا لويز . لقد تبين قسنتى شخصيتها . وهكذا ، فهى المبارزة . سأصيبه فى فخذه ثم أبعث به الى بيته ليلزم الفراش . عند ذاك ستسهر هى عليه وتحبه — وتكرهنى أنا بوصفى قاتلا . ولكن ، هناك شىء جميل يموت ، وأنا حزين يالويز . **(مستعيدا تماسكه ، ويأخذ كأسا من النبيذ)** هيا . انس الهراء المحزن ! سنشرب نخب الرحيل مع الدون كرستوفر — ونخب المعارك أمام مدائن كاثاى الذهبية ! !

لويز : **(مستعيدا مزاجه — يخطف زجاجة)** فليحرق الشيطان مدائنك ! أنا اشرب نخب ينبوعى !

جوان : فى صحتك أيها السيد الشاعر الكذوب !

لويز : وفى صحتك أيها السيد الشره الى المجد ! **(يضحكان ، ويقرعان الزجاجة بالكأس ، ويشربان بينما تنزل الستار)**

المنظر الثانى

(بعد عام ــ السفينة المعقود لواؤها لكولمبس فى آخر يوم من رحلته الثانية . يبدو جانب من السفينة يكشف عن السطح الرئيسى فى وسطها والصارى الأكبر ، والشراع الأكبر وعليه شعار ((صليب مالطة)) ، والسطحين العلويين فى مؤخرة السفينة ، والشراع المثلث الشكل على سارية المؤخرة . السلم الخشبى فى جانب السفينة الأيمن هو وسيلة الانتقال من سطح الى آخر .

الوقت قبل طلوع الفجر مباشرة . السفينة تسير سيرا متزنا فى بحر هادىء السطح . مصباح كبير فى منتصف السطح الرئيسى ، ومصباح آخر فى أسفل فوق الحبال الى يسار السفينة ، وثالث فوق الصليب المعلق على المؤخرة . السفينة مزدحمة بالناس . النبلاء فى السطح الرئيسى يرتدون أزياء فاخرة ، ومعهم أسلحتهم . معظمهم نيام ، ممددون على سطح السفينة متدثرين بأرديتهم ، أو متزاحمين بظهور محنية ، مستندين الى الصارى أو حواف السفينة البارزة . ولكن جماعة

صغيرة ، فيما يبدو ، قد أنفقت الليل ساهرة وهم جالسون القرفصاء . يلعبــون النرد فى ضوء المصباح . وتبدو وجوه اللاعبين شاحبة متوترة ، وعيونهم منفعــلة . ومن البــارزين بينهم ((أوفييدو)) و ((كاستيللو)) و ((ميندوزا)) و ((لويز)) .

وعلى السطح الأول للمؤخرة ، نرى الرهبان نائمين وكلهم من الفرنسيسكان . وهنا أيضــا أربعة من الهنود الذين اعتنقوا المسيحية ، ممن جلبهم كولبس معــــه . ويرتدون ضروبا متناقضة من الثيــاب ، وقد بدوا أنصــاف متحضرين وأنصـــاف متوحشـــين . ونراهم متكومين فى الركن الأيمن ، ليسوا نائمين ، بل متجمدين فى بلادة دون حول ولا قوة . وعلى السطح الأعلى يرى ((چوان)) واقفا الى جوار الملاح القابض على الدفة)

لويز : **(متحمسا)** جوز ولا فرد ؟

اوفييدو : فرد **(يلعبان فيخسر لويز)**

لويز : لقد أفلست ثانية ! **(بزمجرة يأس مضحكة)** الحظ ! الحظ كالعاهر المرتزقة فهى تزدرى الفقراء . **(يأخذ النرد ليلقى به)** مرة أخرى !

اوفييدو : **(متذمرا)** لا . انت مدين لى بأكثر مما تستطيع أن تدفع .

لويز : سأصبح فى غنى قارون . ان الدون كولمبس يقول انـنـا سـنرى البر اليوم : الجزر الهندية ، وجزر التوابل ، وشيبانجو ، وكاثاى ، ولست أدرى ماذا أيضا . . أنا أقامر بثروتى التى سأحصل عليها فى المستقبل ، ضد ثروتك . هيا رمية أخرى مقابل اى شىء ترغب فيه !

أوڤييدو : (**بجفاف**) مقابل ذهب ! ذهب أراه والمسه !

لويز : يا للشـيطان . لابد أن اقترض من چوان اذن . (**ينهض واقفا**) .

أوڤييدو : لن يشكرك على ايقاظك له لكى تقترض منه .

لويز : أتظن أنه ينام وارضه الموعودة بهـذا القرب ! ؟ انه واقف عند مؤخرة السفينة فى مكان القبطان ، يرقب بنفسه ظهور الأرض ، خشية أن تفوت الملاح المراقب رؤية كاثاى !

كاستيللو : ان چوان فائض الحماس . سيثير غيرة كولمبس .

ميندوزا : لقد أثارها بالفعل ! فمن الواضح أن كولمبس يقلل من شأنه .

أوڤييدو : هذه سياسة . انه يعلم أن چوان قد حرم الحظوة فى البلاط منذ المبـارزة . ان قائد اسطولنا ينشر أشرعته مع الريح .

كاستيللو : لقد دفع « چوان » ثمنا غاليا لاصابة ڤسنتى ـ مع انها مجرد وخزة دبوس لم تنزف دما .

ميندوزا : والفضيحة ؟

لويز : (**ساخطا**) كلها زيف . ضغينة السنة الحاسدين ! ! لقد اعتذر ڤسنتى نفسه الى چوان . أما السـيدة

فقد رأيتها مع قسنتي حين كنت فى قرطبة ...
زوجين لا تقع العين على أوفق منهما . بل لقد أشيع
انهما ينتظران مولودا .. (**چوان قد هبط من سطح**
السفينة الخاص بالأميرال فى المؤخرة ، ومر من بين
الرهبان النائمين ، ويظهر الآن فى ضوء المصباح المعلق
على الحبال عند مقدمة السلم المؤدى الى السطح
الرئيسى .. يهتف لويز فجاة) أهذا انت يا چوان ؟
تعال ساعدنى ! ان حليف الحظ هذا (**ويشير الى**
أوفييدو) قد كسب كل شيء عدا جلدى .

چوان : (**ضاحكا**) قامر اذن بينبوع الشباب الذى ستعثر
عليه ـ غدا ! لو أنك بعت ماءه بالبرميل لأصبحت
أغنى رجل فى أسبانيا (**النبلاء يضحكون**)

لويز : (**باشمئزاز حقيقى**) يا لها من فكرة تجارية ، ومنك
انت ! (**ثم هازلا**) حذار !.. عندما تطفح عليك بقع
الشيخوخة فستأتينى مستجديا. (**ثم ضاربا النرد**
بين يديه) ولكن هيا ، أقرضنى ذهبا أرمى عليه
النرد رمية انتقام أخيرة ! (**ثم تأتيه فكرة مفاجئة**)
وانت الذى ترمى لى النرد . ان نجمى محتجب وراء
سحابة .

أوفييدو : ليس هذا عدلا ! ان چوان يربح دائما !

چوان : (**مقطبا**) ما هذا وقت مقامرة .

لويز : (**بالحاح**) مرة واحدة يا چوان .

چوان : (**راضخا على مضض**) مرة واحدة فقط . المكسب
لك . ولتكن الرمية فألا لى . (**يخرج ذهبا من**
كيسه . ويلعب هو وأوفييدو . أوفييدو يربح
فتسرى همهمة اندهاش)

أوڤييدو : **(فى جذل)** أنا الرابح . هذه أول مرة أغلبك فيها يا چوان .

چوان : **(ناهضا)** فأل سيىء ، **(ساخرا)** ولكن لابد أن الفأل هنا بالعكس ، فى هذا الجانب السفلى من الأرض .

ميندوزا : **(نصف خائف)** أيمكن أن نكون معلقين هنا بأقدامنا ، ورؤوسنا الى أسفل دون أن ندرى ؟

كاستيللو : هاها . ان صاحبك الايطالى قد عاد من رحلته الأولى سالما ، فلا يمكن أن ننزلق من على سطح الأرض ، فيما يبدو .

أوڤييدو : قد يكون كولمبس كاذبا .

ميندوزا : **(فى وحشية)** انه مدع وضيع المنبت . ولقد دلل على أصله بجشع المطالب التى قدمها الى الملك . فيم يا ترى كان يفكر الملك والملكة .. حتى يجعلوا من هذا الأجنبى المبتدىء أميرالا ونائبا للملك ؟

چوان : **(زاجرا فى عبوس)** ليس لنا أن نتساءل **(يصمت هنيهة ثم يضيف)** ان مشروعه خدم أسبانيا خدمة طيبة . وهوالآن قائدنا . ويكفينا هذا . **(يدير ظهره اليهم ، ويسير الى الجانب الأيمن للسفينة حيث يقف الى جانب الحبال يتطلع الى البحر ، ويتبعه النبلاء ببصرهم لحظة فى سكون يسوده الخزى)**

كاستيللو : **(فى سخرية)** أنت مسيحى حق يا چوان .. اذ تحب عدوك .

أوڤييدو : **(يتثاءب)** أطفئوا المصباح ، ودعونا ننام ، وسيوقظنا الفجر . **(يطفىء ميندوزا المصباح . الجميع ، ما عدا لويز ، يتدثرون بأرديتهم ويرقدون على سطح**

السفينة . ويجيء لويز الى چوان)

لويز : **(فى ازدراء)** أنظر الى هؤلاء الأغبياء . انهم لقادرون على النوم والشخير حتى فى يوم الحساب . **(واذ يبقى چوان صامتا)** بماذا تحلم — كاتاى والمجد ؟

چوان : كلا . **(ثم فجأة)** عندما نزلت سمعت اسم فسنتى واشارة الى مولود . ماذا كنت تقول ؟

لويز : شائعات قرطبة . روت لى أمى أن ماريا كانت تقيم الصلوات عسى أن ترزق وريثا . وتقول الشائعات ان الدعوات قد أجيبت .

چوان : **(باخلاص عميق)** ألا فليحقق الله هذا . ستكون سعيدة اذن . **(بضحكة ساخرة)** ألم أقل لك تلك الليلة ان مبارزتنا ستصلح ما بينهما ؟ **(فى اتزان)** ولكن الذى دفع الثمن ، أنا . حسن ! ماذا يهم الثمن ما دامت ماريا سعيدة ؟

لويز : **(مؤكدا)** مفخرة واحدة ويصبح البلاط كله ، من جديد ، عند قدميك .

چوان : **(هازا رأسه)** سنكون بعيدين عن أسبانيا . والبعيد عن العين بعيد عن القلب . وسيكون كولمبس الملك هنا ، ونحن الاثنان ، بالطبيعة متنافران .. **(يسمع ضجيج آتيا من السطح العلوى فى مؤخرة السفينة ، ونتبين شخصا طويل القامة ، قادما من السلم الموصل من القمرة الى سطح السفينة . ويتحرك هذا عائدا حتى يكشف عن شخصه ضوء المصباح المعلق فوق الصليب . انه كولمبس . يرتدى زيه كاملا ، ولكن دون قبعة فوق شعره**

الطويل الأبيض . وهو شخص مهيب نبيل ، عليه ملامح السلطة والامرة ، يفيض وجهه بذلك الحماس الملتهب الذى يتسم به الذين يكرسون حياتهم للدين)

لويز : **(جاذبا جوان الى ظلام المؤخرة)** اذا ذكرت الشيطان أتاك .

(يقفان يرقبان وينصتان مختفيين عن سطح المؤخرة)

كولمبوس : **(مخاطبا ملاح الدفة)** هل تسير فى الطريق المرسوم ؟

الملاح : غربا الى الغرب يا سيدى .

كولمبس : **(متطلعا فيما حوله)** أما يطلع هذا الفجر ! **(يأتى ناحية الحافة ، وينادى الى أسفل حيث الرهبان ـ فى صوت خفيض)** أيها الأب مننديز ، هل أنت مستيقظ ؟

مننديز : **(ينهض مسرعا من بين الرهبان النائمين)** هأنذا يا صاحب السعادة **(ويصعد الى السطح ويقف ينتظر فى احترام)**

كولمبس : **(بغلظة ودون اكتراث)** لابد ان هناك خطأ فى خريطة توسكانيللى . كان ينبغى أن نرى البر منذ وقت . **(هنيهة صمت . يذرع المكان جيئة وذهابا)** ستشرق الشمس عما قليل . انها فى هذه المناطق تقفز قفزا من الظلام **(صمت. ثم فى انفعال واضح)** رحلة مضنية أيها الأب . أرواحهم دنسة هؤلاء النبلاء . انهم يعتبرون هذه الرحلة وسيلة يسيرة للحصول على الثراء الوفير ، لا جهادا مقدسا فى سبيل المجد الالهى .

منندیز : (**فى اقتضــاب**) انهم ذوو شــجاعة . وقد أثبت كثيرون منهم مقــدرتهم فى الحرب . چوآن پونس دى ليون مثلا .

كولمبس : (**ممتعضا**) هذا وغد جسور . متهالك على المبارزة .

لويز : (**فى انفعال هامس**) فليسحقه الشيطان .

چوان : عاقبة أخرى لتلك المبارزة المشئومة .

منندیز : (**فى ايجاز**) لم تنصفه يا صاحب السعادة .

كولمبس : أوه . اننى أسلم بأنه حائز على كل الصفات ، الا تلك التى وحدها تكسبها جميعا صفة الفضيلة ــ اعنى التواضع الورع . ليس فى هــذه الرحلة الـكبرى مكان للأنانيين الذين لا يســعون الى غير مصالحهم الشخصية . ينبغى أن نؤمن جميعا بأننــا أدوات صغيرة لتحقيق الارادة الالهية المقدسة (**يتوقف وفجاة**) لكننى لم استدعك هنا للحديث عنه (**بعد هنيهة . فى قنوط**) ان روحى يثقلها عبء لا تطيقه .

منندیز : (**فى جفاف**) أترغب فى الاعتراف ؟

كولمبس : (**مندهشا**) الاعتراف ! (**فى نبرة عالية ، رنانة**) أجل ، ولــكن للناس جميعا . ان أفواههم مكتظة بالأكاذيب ضدى . يقولون ان ما طلبته لقاء اكتشافى يثبت جشــعى ووضاعتى . هؤلاء الأوغاد ! ماذا يعرفون عن قلبى ؟ أمن أجل نفسى أريد الثراء ؟ كلا . وانما أنا وسيلة الله المختارة . أرشدنى الله الى جزره الهندية . وأنا فى حاجة الى ذلك السلطان الذى يجلبه الثراء . . . فى حاجة اليه من أجل المجد العلوى ، لا مجدى أنا . (**يزداد تهللا**) ان فى قلبى

حلما يا أبتاه . أصغ الى . منذ باكورة شبابى وأنا أمقت الـكفرة . لقد حاربت قراصنتهم ملاحا فى سفن جنوا ، وحينما رأيت قســاوتهم وضراوتهم قد قطعت تجــارتنا مع الشرق ، صليت لله أطلب حربا صليبية واحدة ترد البحر الأبيض الى أحضان العالم المسيحى . وكانت أعظم صلواتى تبتلا تلك التى رفعتها من أجل اســتنقاذ أرض المسيح من الدنس **(يرسم علامة الصليب ، وكذلك يفعــل منندیز . ثم يمضى هو مسرعا فى جذل وابتهــاج)** والآن ها هى دعوتى تجاب . وبنصيبى من ثروة الهند وشيبانجو وكاثاى سأجرد جيشا ... أشن به آخر حرب صليبية . لقد وعدت بها قداســة البابا . . خمسة آلاف رجل ، وأربعة آلاف حصان ، تتلوها قوة مماثلة بعد خمس ســنوات . سأعيد غزو الأرض التى حظيت بقبر المسيح المقدس ، فى سبيل العقيدة الحقة . ومن أجل هذه الغاية المقدسة أكرس كل حياتى وثروتى وقوتى **(يقف محدقا الى السماء بتلك النظرة التى تتألق بها عيون المتحمسين الدينيين)**

منندیز : **(فى جفــاف)** ان مثــل هذا الطموح الورع يرفع منزلتك .

چوان : **(عاجزا عن ضبط نفسه ، يقول ساخرا)** لقد انتهت الحروب الصليبية ، ولكننا لم نفز بعد بثروة الشرق .

كولمبس : **(كأنما لدغ يقول فى غضب)** من ذا الذى يجسر ..؟

چوان : **(فى كبرياء)** نبيل من اســبانيا يفكر فى عظمتها ،

بينما تحلم أنت بچنوا وروما . جندى من العصر
الحاضر ، لا شبح من أشباح الصليبيين **(ثم بسخرية
ونفاد صبر)** بحق دم المسيح هل أصبح كل قوادنا
أنصاف رهبان ..؟ كان هنـــاك وقت لذلك عندما
حاربنا العرب . أما الآن فان عهدا جديدا يشرق
فجره على أســبانيا بامبراطورية عالمية . انك اذ
تعيش فى الماضى انما تكرس مستقبل أسبانيا للتعصب .

كولمبس : **(فى غضب)** وقح !

چوان : **(فى حمية)** كلا ! انا أحترمك يا كولمبس ، ولـكن
لى حلمى أنا الآخر . تستطيع أسبانيا أن تصبح
سيدة العالم ، وأعظم من روما القديمة ، اذا استطاعت
أن تجد قوادا يكسبون لها الفتوح . ويعرفون أيضا
كيف يحكمون بروح السماحة والاعتدال **(يضحك
ضحكة مريرة ، ساخرة)** ولكن يا له من وقت لمثل
هــذا الحديث ! أنظر الى رجال هذا الأســطول .
الآن ، والشرق على وشك أن يتكشف لهم ... أنا
أوافقك يادون كرستوفر ، أنها رحلة مضنية حقا ،
مغامرون متشوقون الى أسلاب وغنائم يحصلون
عليها بطعنة أو طعنتين . نبلاء أسبانيا يحلمون أحلاما
جشعة مفعمة بثراء يؤول اليهم بفضل مولدهم .
ورهبان يتحرقون الى آلات يعذبون بها رعايا مخلصين
للتاج ويحولونهم بها عبيدا للكنيسة . ويتولى قيادة
هؤلاء أنت يا دون كرســتوفر ، يا من ســتنهب
وتســلب لتبعث الحروب الصليبية من مرقدها .
نهابون كلــكم فردا فردا . أليس فينا واحد يرى

فيها أرضا يشيد فوقها ويبنى ؟ سننهب وننهب الى أن يضنينا النهب فنخر فرائس سهلة أمام نهابين أقوى منا . ألا فليرحم الله هذه الأرض حتى يهلك آخر نهاب فى الدنيا ! **(وبينما هو فى حديثه تكون الظلمة قد خفت الى حد ملموس)**

كولمبس : **(ثائرا)** من أنت .. تقدم . أنت لا تجسر على ذلك .

چوان : **(يقفز الى سطح المؤخرة ، ويتقدم الى السلم صاعدا الى الأميرال فى كبرياء)** انه أنا ، چوان پونس دى ليون ، لماذا لا أجسر .. أتريد تحت قيادتك رجالا ، أم حجابا وخدما ؟

كولمبس : **(محاولا أن يكتم غيظه)** صمتا **(يتردد نداء طويل كالنواح « الأرض أمامنا »** آتيا **من ناحية الصارى الكبير . وعلى الفور يسمع النداء** نفسه **آتيا من** بقية **سفن الأسطول . يسود الهرج والمرج . يقفز الجميع واقفين ، أنصاف نيام يحملقون فيما حولهم مشدوهين . وبالاحساس الغريزى ، يدرك الهنود الأربعة ما حدث ، فيتعلقون بحافة السفينة ، يحدقون عبر المياه فى حنين عميق . ويتقاطر الى السطح حشد من البحارة والأتباع لم يكملوا ارتداء ملابسهم ، قادمين من أسفل . يسمع خليط من الصيحات . يتطلع كولمبس الى أعلى ليرى الناحية التى يشير اليها المراقبون ، ثم يستدير الى الجانب الأيمن للسفينة ، ويقفز «چوان» الى سلم الصارى)**

المجموعة : الأرض .. الارض .. أين ؟ لقد سمعت النداء . لقد قال المنادى .. الأرض . الى أين يشير ؟ أنظر

أين يتطلع الأميرال . عنـــدما تظهر الشمس . . .
(وفجاة تكتسح سطح السفينة أشرطة من ضوء ذهبى مشرب باللون القرمزى . يهتفون جميعـــا)
الشـمس .

چوان : **(مشيرا)** هناك . . اننى أراها . فى هالة من الذهب والأرجوان ! أسبانيا الجديدة العظمى .

الجميع : **(يتزاحمون الى الجانب الأيمن للسفينة ومقدمتها . يزيحـــون الهنـــود من الطريق ، ويدفعونهم يمينـــا ويسارا . ويلقون بهم جانبا فى ازدراء ، مصحوبين باللعنات والشتائم ، حتى ينزوى هؤلاء فى المؤخرة وقد حيرهم ذلك وملأهم رعبا . وهناك يجلسون قانطين)** أين . . اننى أرى . أين ؟ هناك . هناك كاثاى . شيبانجو . أهى كاثاى ؟ أين المدن الذهبية ؟ أهى شيبانجو ؟ جزر الهند . جزر التوابل . أرض ماركوبولو **(يتزاحمون جميعا ، وهم يتـــدافعون فيما بينهم ، ويمدون أعناقهم ، وقد امتلأت عيونهم جميعا ــ خدما وبحارة ونبلاء وقسسا ــ بنفس النظرة المتطلعة فى جشع ، وشـــوق ، الى السلب والنهب)**

چوان : **(فى جذل)** كاثاى أو شيبانجو أو جزر التوابل . ماذا يهم ؟ ستكون أسبانيا الجديدة العظمى **(يهتف الجميع بأصوات عالية)**

كولمبس : **(محاولا أن يخمد الضجيج)** صمتا . قلت لكم صمتا . **(مثبتا عينيه فى عبوس نحو چوان فيبـــدو فيهما العداء غير مقنع ــ لائما)** الأرض أرض الله . فلنرفع

شكرنا لله ، اركعوا . انى آمركم . ارفعوا الصليب .
(يرفع الرهبان صلبانهم . يركعون . ولكن النبلاء والجنود يترددون فى انتظار ((چوان)) كأنما رأوا فيه قائدهم الحقيقى)

چوان : **(يقفز من مكان على حبال السفينة ويستل سيفه ـ فى جذل هائج)** هــذا أيضــا صليب ، صليب الجندى ـ صليب أســبانيا **(يغرز حد سيفه فى خشب السفينة ، ويركع أمامه . يحذو حذوه كل النبــلاء والجنــود فى موجة عارمة من الهتــافات والاشــارات العنيفــة . كلهم راكعــون الآن أمام صلبانهم . سيوفهم المرتعشة أمامهم ، وقد ارتفعت مقابضهم فوق مستوى رؤوسهم)**

كولمبس : **(على ركبتيه ـ ناظرا الى الســماء فى تبتل)** لك الشكر يا رب . .
(يبدأ الرهبان فى الترتيل . ويشترك الجميع فى انفعالهم هنا ، فيكتسب ترتيلهم خليطا من الفوضى والتوتر . چوان لا يشترك فى الترتيل ، بل يحدق ناحية الأرض الماثلة فى الأفق البعيد)

ســـــتار

الفصل الثاني

المناظر ٣ و ٤ و ٥ و ٦



المنظر الثالث

(بعد عشرين عاما أو نحو ذلك ـ فناء قصر الحاكم ، فى ((بورتوريكو)) . أزهار وشجيرات ، وأشجار جوز الهند والبرتقال والموز . وفى الوسط نافورة كبيرة أنيقة شديدة الشبه بنافورة المنظر الأول . ويحيط بحوض النافورة ممشى ضيق مرصوف . تتفرع منه مماش أخرى تؤدى الى مختلف المداخل . والى اليمين واليسار أبواب تؤدى الى داخل القصر . وفى الوسط الى المؤخرة نرى المدخل الرئيسى الى الفناء ، ويؤدى الى الطريق .

الساعات الأخيرة الثقيلة بعد ظهر يوم خانق الحرارة . الفناء يتلظى بالحرارة ، ومياه النافورة تتلألأ فى الجو الحار .

((جوان)) جالس على المقعد الحجرى امام حوض النافورة ، مرتديا الزى الرسمى الكامل لمنصبه كحاكم للبلاد . وجهه الآن يحمل معالم السن والغضون والضمور . شاب شعر رأسه ولحيته . عيناه تحدقان أمامه غارقتين فى حلم فاشل . والخطوط المريرة مرتسمة حول فمه المطبق . يدخل

لويز من اليســار فى المؤخرة يرتدى مسوح الراهب الدومينيكى ، ويدل وجهه على الأعوام التى مرت ، ولـكنه قد اكتسب الآن تعبيرا هادئا راضيا ، كأنما أصبح أخيرا على وفاق مع نفسه . ويهبط متجها الى چوان ويضع يده على كتفه)

چوان : **(يتنبه من شروده ـ ثم يحيى صديقه بابتسامة)** هذا أنت أيها الأب الموقر ! **(ويضغط على حروف الكلمة الأخيرة ساخرا)**

لويز : **(فى صــفاء)** أجل أيها الحاكم العظيم **(يجلس الى جوار چوان . ضاحكا)** أنت تبدو كطفل ســاخط يا چوان . هيا ، ألم يحن الوقت بعد ، وقد انقضت سنوات خمس ، لكى تغفر لى ، أن أصبحت راهبا دومينيكيا .

چوان : **(فى مرارة)** أغفر لصديقى أن يهجرنى الى عدوى !

لويز : **(محتجــا)** أوه لا تقل هذا **(بعــد هنيهة صمت ، يتنهد ويقول)** لقد كنت دائما تحـلم بكاثاى . وأنا بم كنت أحلم ؟ ماذا فعلت بحياتى ؟ لقد كنت وغدا مدعيا ، لا هدف له فى الحيــاة . لا هو بالشــاعر ولا هو بالجندى ، لا مكان فى الأرض ولا ســلام فى الروح . لم يكن هناك معنى لحياتى حتى بالنسبة الى نفسى ، الى أن هدانى الله الى ارادته المقدسة .

أنا الآن أعيش فى رحاب الحق . لكى تملك شيئا لابد أن تنبذ شيئا .

چوان : ما أسخف الحياة اذن لو كان ذلك حقا ! (**بعد فترة، مغتاظا**) أنا أخوض المعارك . وأنتم ، أيها الرهبان ، تسرقون الغنائم . أنا أحاول أن أبنى ، فتقيدون أنتم يدى وتهدمون .

لويز : (**محتجا**) أنت تتحدث عن « ديجو » وأمثاله .

چوان : انت تستخدم الرحمة فى تحويل الناس الى المسيحية ، وهو يستخدم القسوة ، ولكن النتيجة واحدة . ان عملية تعميد الهنود هذه ، عملية قسرهم على ازدراد الصليب رغم أنوفهم ، ثبت أنها غلطة بشعة ، لقد سحقت أرواحهم واضعفت أبدانهم . وأصبحوا الآن عبئا على اسبانيا بدل أن يكونوا لها خدما نافعين .

لويز : لقد سحقهم جيشك أولا .

چوان : كان ينبغى أن نفتح بلادهم ، ولكن ما كنت لأزيد عن ذلك (**غاضبا**) ها نحن نتناقش فى هذا الأمر للمرة الألف . لقد فات الأوان . ولم يعد للكلام جدوى . (**يتنهد متعبا**) نحن نفعل ماينبغى علينا ، وستوارى الرمال أجسادنا وافعالنا (**بابتسامة**) ثم انه يوم قائظ الحر لا يطاق . هات الأنباء . أيصل اليوم ذلك الأسطول القادم من اسبانيا ؟

لويز : لقد رأيتهم الآن مبحرين صوب الميناء بكل سرعة . سيلقون مراسيهم عما قليل. (**تقطع عليهم الحديث ضجة أشخاص يقتربون اليهم من الخارج . يدخل أوفييدو والراهب كويسادا وهو فرنسيسكانى ،**

يتبعهم الزعيم الهندى ((نانو)) يحرسه جنديان بسيوف مشرعة . ((كويسادا)) راهب شاب ، نحيف ، له عين المتعصب الملتهبة ووجهه الضامر المتقع . أوفييدو الآن مسن ، ولكن دون اشارة تدل على تغير فى شخصيته . ((نانو)) هندى طويل القامة ، قوى البنيان ، فى الخمسين من العمر أو نحو ذلك . ومع أنه مثقل بالسلاسل ، الا أنه يسير منتصب القوام وعلى وجهه أمارات اعتزاز وتباعد . ويضع على رأسه غطاء من الريش . طلى جسمه ووجهه بالألوان . وتزين بالعقود حول عنقه . وهو عارى البدن الا من غطاء للعورة ونعلين فى قدميه)

كويسادا : **(بوحشية ورعونة)** أنا أطالب بتنفيذ العدالة فى هذا الكلب .

چوان : **(فى برود وفى كبرياء)** تطالب !

كويسادا : **(فى كراهة لم يحسن اخفاءها ، وان كانت طريقة چوان قد أفزعته)** اغفر لى حميتى فى خدمة الله ، ياصاحب الفخامة . أرجو تنفيذ العدالة **(ثم متحديا)** ولكن ليس من عادة الكنيسة أن تقف موقف الرجاء .

چوان : هذا أسوأ **(فى تجهم)** ما جريمة هذا الهندى ؟

كويسادا : قبيلته ترفض أن تدفع الضريبة . وهو نفسه قد تجاسر ورفض التعميد المسيحى .

چوان : **(فى برود)** سأستجوبه أنا **(يتردد كويسادا وهو يصطخب بالغضب فى أعماقه . چوان يقول فى خشونة)** يمكنك أن تنصرف .

كويسادا : **(ينحنى كاظما غضبه)** نعم يا صاحب الفخـامة . **(ينصرف)** .

چوان : **(مخاطبا أوفييدو فى احتقار أكيد)** ألديك أنت أيضـا تهمة ضد هذا الهندى ؟

أوڤييدو : **(فى غضب)** التمس العدالة ، هؤلاء الكلاب لا يريدون أن يدفعوا ما عليهم من ضرائب . ونحن الذين نملك الاقطاعات لا نستطيع أن نجعلهم يعملون فيهـا الا باستخدام القوة التى قضيت انت بالحد منها . فلم اذن لاتعاقبهم بان تجعلهم يعملون لدينا وفاء لديونهم؟ وبهذا تدفع للحـكومة أنصبتها ، ونجـد نحن عمالا لمناجمنا وحقولنا .

چوان : **(وقد ثار اشـمئزازه)** ليست هذه فكرة مبتـكرة يا أوڤييدو . فانت تعلم جيدا أن هذا هو نفس الخطأ الذى ارتكب فى مستعمرة « اسبانيولا » . ان ذلك معناه الاستعباد . وهى وسيلة تقضى على الغرض المنشود منها . ان الهنود يموتون تحت السـياط ، ومعهم تموت أعمالك . **(فى احتقار)** أتظننى كولمبس حتى تطلب الى ارتكاب هذه الحماقة ؟

أوڤييدو : **(فى ترفع وتعال)** هل ترفض ؟ **(يذهب الى المؤخرة حيث يستدير اليه مهددا)** خذ حذرك يا چوان . سيأتى يوم الحساب . عندما يعود دييجو من أسبانيا . **(يخرج)** .

چوان : **(مقطبا)** دييجو .. ماذا تعنى ؟

أوڤييدو : **(بابتسامة تشف)** لا شىء . وداعا يا دون چوان . **(يخرج)** .

چوان : **(بضحكة مريرة)** هذا هو جزائى . تبا لذلك كله . وما الفائدة ؟ . . . **(فجاة يبـدو كأنه يرى « نانو » للمـرة الأولى . ويحملق كل منهما فى الآخر)** لقـد نسيتك . ألست أنت نانو زعيم آخر قبيلة قهرتها ؟ **(اذ يبقى الهنـدى صامتا . يقول بلهجـة آمرة)** تكلم . .

نانو : كانت الشـياطين تحالفك . حرقت قرانا . وقتلت نساؤنا واطفالنا ــ زوجاتى وأطفالى .

چوان : **(مقطبا)** هذا مخالف لأوامرى . ولكن ، مرة أخرى، ما الفائدة ؟ من مات مات . لقد فات الأوان . **(بعد فترة ــ بنوع من السخرية فى النفس ، وفى تعب)** ألم تسمع أبدا عن كاثاى وشيبانجو ؟ أتعرف بلادا واسعة تقع الى الشرق وفيها ناس كثيرون ، وقرى كبيرة بها اسوار عالية . . وذهب كثير ؟

نانو : أجل ، سمعت .

چوان : **(مندهشا. يسأل باهتمام)** آه ، وأين هى ؟ **(يشير نانو ناحية الغرب)**

لويز : **(لاهيا)** هناك حيث يوجد ينبوع الشباب ، ينبوع أيام خمرى ولهوى . . هناك فى أرض الأحلام .

چوان : **(بنوع من الجـد)** انهم يقولون انه توجـد بين هذه القبائل اسطورة عن ينبوع مماثل **(ثم مخاطبا « نانو » بابتسامة ساخرة)** ان صديقى هذا استبد به القلق فى انتظاره الخلود فى السماء ، وهو يفضـل أن يفوز بذلك هنا ، على الأرض .

لويز : چوان .

چوان : فهلا أخبرته أيها الزعيم الجبار عما اذا كان هناك ينبوع يستطيع المسنون من الرجال أن يستحموا فيه أو يشربوا منه فيصبحوا شبابا مقاتلين من جديد ؟

نانو : (**لدهشة كل منهما**) اجـل . هكذا يقولون . ولكن ليس هنا . بل فى وطنى . وهى بلاد لا نهاية لها . لقد روى قساوستنا هذه القصة ، وكنت صـغيرا عندئذ . لقد أسرت فى الحرب وجاءوا بى الى هنا . وتبنانى أحدهم . ولم أعد أبدا الى بلادى .

چوان : (**غارقا فى التفكير**) هكذا ! وأين هذه البلاد ، موطنك؟ (**نانو يشير كما سبق له أن أشـار**) وأين كاثاى ؟ والينبوع ، أهو هناك ؟

نانو : (**بعد لحظة تردد**) نعم . ان قومى يسمونه « ينبوع الحياة » .

لويز : (**وقد أثاره الخاطر**) اسم جميل (**مرتابا**) وما أظن أحدا يستطيع العثور عليه .

نانو : هؤلاء الذين تحبهم الآلهة يستطيعون أن يجدوه .

چوان : (**باحتقار**) آه ! حيلة الشعراء العتيقة ــ التملص من الحقائق (**مستديرا الى لويز**) أتذكر العربى الذى كان معنا تلك الليلة فى غرناطة ؟ « فما يكشف الينبوع عن نفسه الا للصفوة المختارة من الناس » . هكذا قال. هذا الصدى هنا يردد صوته ذاك. ياللشعوذة ! (**ثم فى تفكير**) ولكن هذا غريب . لا دخان بلا نار . لقد نسب العربى أسطورته الى الشرق ــ كاثاى ــ وها نحن الآن نقع عليها من جـديد ــ فى كاثاى أيضا . بينما قمنا بدورة حول العالم (**كأنما قد خجـل من**

نفسه أن أخذ المسألة مأخذ الجد هكذا ، يقول دون اكتراث) على أية حال ، هذا دليل جديد على أن كاتاى قريبة **(تسمع طلقة مدفع آتية من ناحية الميناء)** .

لويز : لقد ألقى الأسطول مراسيه .. وسيأتى ديجو . اذا استطعت أن تعهد الى بهذا الهندى فسأحاول ادخاله فى الدين المسيحى .

چوان : **(نافد الصبر)** لابد أن يذهب الى السجن على ذمة التحقيق فى هذه القضية . ولكن يمكنك أن تزوره هناك **(مخاطبا «نانو» ، مقطبا)** اذا ثبت أنك شجعت التمرد على أسبانيا ، فستشنق . أما اذا كنت متهما بأية تهمة أخرى فسأحاول انقاذك **(مستدعيا الجنود)** أيها الحراس **(يحيون ويقودون نانو الى الخارج من اليسار . چوان يذرع المكان جيئة وذهابا وهو يفكر فى جد وتجهم)** ديجو ! هل سمعت أو ڤيدو يهددنى به ؟ أية مكيدة أتى بها من أسبانيا هذه المرة يا ترى هذا العنكبوت الملعون ؟ سيفسد تآمره كل ما قمت به هنا **(فى غضب عاجز)** والمعركة لا أمل فيها . ان أسلحته همسات وأراجيف ، وحيالها يقف الرجل الشريف أعزل من السلاح . **(معبرا بقوة)** أسأل الله أن يكون هذا الأسطول قد حمل لى تفويضا ملكيا باكتشاف بلاد جديدة . اذن لسافرت غدا الى كاثاى — أو الى القمر .

لويز : **(بحزم)** حارب معركتك هنا . هذه بلدك . أنت الذى فتحتها .

چوان : كولمبس هو الذى اكتشفها . وما زلت أشـعر بأثره هنا يخنق أنفاسي ، كأنه ضباب أسود ..

لويز : (**ملطفا الأمر**) لقد مات فاعف عنه . لقد تحمل من المظالم ما أعجزه عن أن يكون عادلا .

چوان : كيف يمكن لكبريائى أن تعفو . لقد ظللت سنوات أعمل فى المواقع النائية ، وعانيت من الجروح والحميات .. من أجله حاربت الهنود ، بينما أقلع هو مبحرا الى جنة عدن ، وكنوز سليمان ، وطوبيات الانجيل . كان يعلم أن شرفى لن يسمح لى بالتآمر ضده كما فعل الآخرون ، ولذا فقد تجاهل خدماتى وحكم على بخمول الصيت فلم يرد لاسمى ذكر ، ولا مرة واحدة ، فى تقاريره الى اسبانيا . ولكن منذ سقوطه فقط . . . (**ثم يترك الموضوع فجأة**) بل حتى هذا ايضا ان هو الا قصة عتيقة (**ثم بنفاذ صبر مفاجىء**) لماذا لا أرحل أنا للبحث عن كاناى ؟ لقد فشل هو فى ذلك ، ولكننى سوف انجح . أنا لست خياليا يجرى وراء أوهام (**فى قنوط**) أقول لك اننى أمقت هذا المكان ، امقت سلطتى التافهة . رباه ! اننى لأغرق بورتوريكو كلها من أجل نظرة واحدة الى كاناى .

لويز : (**مذعورا**) چوان !

چوان : (**بعد فترة ـ فى تهكم**) لا تخف ، فلن أهجر جزيرتك الغالية . ان هذا التفويض الملكى لن يأتى أبدا . . . وحتى اذا جاء فان هناك عقبة (**قانطا ، وقد بدا عليه التعب الشديد**) لقد فات الأوان ، وكاناى أبعد من أن نبلغها ، والتعب قد نال منى أكثر مما أطيق .

ولقد طال قتالى مع توافه الأمور حتى أصبحت تافها. صدئت روحى فى أغـلال عشرين عاما ، فهى اليوم تجنح الى قبول هذه الأغلال طلبا للسلام **(فى حنين عاطفى عميق)** آه لو استطعت فقط أن أشعر بنارى القديمة ، حمية قلبى وعقلى ! لو استطعت أن أكون مرة أخرى ذلك الرجل الذى حارب أمام غرناطة ! ولكن النار تخبو ، فما تزيد على أن تدفىء ارادتى لكى أحلم بالماضى ، وما عادت بقادرة على أن تقدح شرارا يشعلها بالأعمال. **(بابتسامة رثاء حزينة)** لقدبدات اخشى ... فشلا آخر .. أنا الآن أكبر سنا من أن أجد كاثاى .

(يظهر مننديز فى المؤخرة ، فى الوقت المناسب ليسمع العبارة الأخيرة ، يرتدى زى الأسقف ويبـدو عليه عمره الحقيقى . ولكن ملامح المتعصب المتحمس قد استحالت الآن الى ملامح لاتقل قسوة ، ملامح مدبر المكائد الأريب وقد جعله النجـاح راضـيا ، ملامح المتـآمر المقامر الذى يعمل الآن فى رسم سياسـة الكنيسة . يقف مترددا يجيل من شخص لآخر نظرة تشكك وتفحص . ثم يتقدم متكلفـا هيئة الجـذل والابتهاج)

مننديز : ما هذا الذى أسـمعه ؟ أنت أكبر سـنا . كلا كلا يا چوان ، ما هذا الا قول باطل **(يستدير الاثنـان وقد أخذتهما المفاجأة . چوان يحملق فيه فى نفور. ويتبادل مننديز مع لويز انحنـاءة باردة فيها طابع التنازل ، ثم يتقدم نحو چوان باسطا ذراعيه ، وهو**

يبتسم ابتسامة مداهنة) . أما لى عندك من تحية أيها الصديق القديم ؟

چوان : **(يأخذ بيديه دون تهويل ، ثم يقول متهكما)** ومن ذا الذى يتوقع أن يراك هكذا تدخــل دون اعــلان بعودتك ــ مثل اى راهب مسترق للسمع .

منندیز : **(دون أن يضــطرب لهذا)** شوقى لرؤيتك . لدى أخبار عظيمة ، وكثيرا ما تحدثت الى الملك عنك . . وهو الآن يقدرك أعظم تقدير . وكدليل على رضاه عنك فاننى أحمل لك . . . **(ثم بابتسامة خبيثــة)** ولكننى أعتقد أنه ينبغى الا أقول اننى أنا الذى يحمل اليك ، اذ يجب أن يبقى هذا الشرف لشخص أعلى منى قدرا .

چوان : **(فى نفاد صبر)** أنا أكره الأسرار والألغاز .

منندیز : **(باســتفزاز)** سأعطيك اشارة تفصح عن اللغــز ، احتراما للشيخوخة التى كنت تبكى عليها الآن . هيىء نفســك لترحب بالشــباب ، وبجائزة كنت تتلمسها طوال حياتك فى جزر الهند . جائزة أقرب الى قلبك مما كانت الخمر عند لويز قبل أن يتوب . **(وبهذه الخاتمة اللاذعة ، يستدير)** عفوا اذ اترككم الآن . على أن أعد العدة . . لهذه المناسبة الكبيرة . **(ينحنى وهو يسخر ، ثم ينصرف من جهة اليمين)**

چوان : **(غاضــبا)** دساس ، مدبر للمكائد ! **(يذرع المــكان جيئة وذهابا)**

لويز : **(بعد أن يفكر لحظــة ، يقول فجاة)** لقد وجــدت السر . لابد أنه التفويض الملكى للقيام بالاستكشاف .

لقد حصــل عليــه من الملك ، لأنه يريد أن يتخلص
منك هنا . أنت تقف فى طريقه ، بسياستك فى الايمان
بالرحمة والتسامح . وهو يريد أن يكون ديكتاتورا
مطلق التصرف ليلجأ الى الاســتعباد والتعذيب .
ولكنه يخشى أن يحاربك حربا صريحة . وهل توجد
خطــة أبرع من أن يبعث بك بعيــدا وأنت راض ،
معترف بالجميل ، مرتش دون أن تدرى ؟

چوان : (**رافضا**) اذن فساراوغ هذا التعلب . لا ارغام فى
مثل هذا التفويض . . . (**وقد اختلط عليه الامر**)
ولكن ذلك أعظم أمل لى يتحقق . . . بعد فوات الأوان .
(**محاولا أن يتكلم كأنما يعيره أو يتهكم عليه**) ولكن لابد
لى أن أجد كاناى ، هذا اذا كان بها ينبوع الشباب
ذاك الذى تحدثت عنه .

لويز : أسمع ناسا قادمين . يجب أن اذهب . أن رؤيتهم
لنا معا تزيدهم حقدا وضغنا (**يضغط على يد چوان**)
كن حازما أيها الصديق القديم ، مهما يحدث (**يخرج
من اليسار . يرتفع همس القادمين . يتهالك چوان
جالسا على المقعد القائم أمام النافورة ، غارقا فى تفكير
حزين ، غافلا عن الينبوع . . . تظهر « بياتريز دى
كوردوفا » ، ترافقها وصيفتها ، وحشد من النبلاء
يرتدون ملابس فاخرة . بياتريز فتــاة جميــلة فى
الثامنة عشرة أو نحــو ذلك ، وهى صــورة ناطقة
بالحيوية الفتية والسحر والرشاقة . تصرفهم مشيرة
اليهم بالتزام الهدوء . ثم تتقدم نحو چوان ، جاعلة**

النافورة فاصلا بينهما ، وهي تمسك في يدها وثيقة مختومة . وأخيرا تناديه بصوت متلهف مرتجف)

بياتريز : دون چوان ! **(يستدير چوان بسرعة على مقعده ، ويحملق فيها خلال الينبوع ، وتبدو منه صيحة تعجب مفاجئة ، كأنما وقعت عينه على شبح ، ويأسر جمالها عينيه فلا تتحولان عنها . وفجأة تضحك هي ضحكة مرحة ، صافية ، لينة ، ثم تدور بسرعة حول النافورة وتواجهه)** انها أنا يا دون چوان .

چوان : **(يحملق فيها وما زال مسحورا بها . ثم يتذكر فجأة ، فينهض واقفا ، وينحنى انحناءة كبيرة بفروسيته الساخرة القديمة)** عفوا . لقد سحرنى جمالك . ظننتك روح النافورة **(ثم يتزايد تهكمه)** أيتها السيدة الحسناء ، انك تسبغين على شرفا لا أستحقه .

بياتريز : **(وقد آلمتها لهجته وأربكتها)** ألا تعرفنى ؟ عجبا . أنا بياتريز **(ينحنى لها من جديد دون أن يبدو عليه أنه عرفها)** ألم ينبئك الأسقف مننديز ؟

چوان : **(فى تشكك)** لم ينبئنى عنك ، أنت ، شيئا ، ياسيدتى الجميلة .

بياتريز : أنا بياتريز دى كوردوڤا .

چوان : **(ينظر نحوها مخمنا ـ ثم يدهش فيحملق فيها ـ فترة صمت ، ثم ببطء)** ابنة ماريا ! انت !

بياتريز : **(تنطلق بكل ما عندها دون تحفظ)** لقد ماتت منذ عام . وأنا الآن ... فى رعايتك . كانت هذه رغبتها الأخيرة . كأن أبى قد مات ، وليس لى من

قريب تستطيع هى أن تثق فيه . وطلبت الى الملك أن يبعث بى اليك هنا . فطلب الى أن أنتظــر حتى يقودنى الأسقف اليك ، وحملنى أيضا هذه الهدية لك ــ قال انها أعز أمنياتك **(تعطيه الوثيقة)**

چوان : **(يبسط الوثيقة ــ تمر فترة وهو يحملق فى الوثيقة دون فهم ، ثم يقول فى مرارة)** التفويض . . باكتشاف كاثاى .

بياتريز : نعم . وأنت تستطيع أن تنجح فى العثور عليها بينما فشل الآخرون . انا أعلم هذا . لقد كنت عند أمى المثل الأعلى للفروسية الاسبانية . فارسا حقا من فرسان الصليب . كانت هذه نبوءتها . . . ستكون أول من يصل الى كاثاى .

چوان : كانت تتكلم عن الرجل الذى عرفته حينذاك **(محملقا فيها مسحورا . ثم فى اهتمام وحميــة)** انها تبعث الى بك ، وأنت الشباب . أتراها تتهكم على ؟

بياتريز : **(فجأة)** دون چــوان : أنا أتذكر شــيئا أوصتنى ألا أنساه حين ألقاك . لقد قالت « أعطيــه العطف والحنان وفاء لدينه على اذ أنقــذنى من أجلك » . وقالت ان هذه الكلمات سر لا أطلع أحدا غيرك عليه . ماذا كانت تعنى بهذا يا دون چوان ؟

چوان : **(وقد تأثر تأثرا عميقا)** العطف والحنان . أتأتين الى بهذا يا بياتريز ؟ **(ثم كأنمــا قد اســتعاد نفســه)** كلا ، لاتفعلى . هذا معناه الضعف . هات لى الماضى ، بدلا من ذلك . ردى الى الرجل الذى عرفته أمك .

بياتريز : **(وكانت تفحصه دون أن تعير كلمـاته اهتمـاما)**
أنت أكبر سنا مما كنت أحلم به يا دون چوان .

چوان : **(وقد جرح ـ بصوت عنيف أجش)** ليس فى قولك هذا عطف ولا حنان . الشباب ! انه درع من الفولاذ اللامع . سيف وضاء . الضحكات فوق ضـجيج المعركة . **(يرى دهشتها المرتاعة من كلماته فيتمالك نفسـه ويضيف فى مرارة حزينـة)** كان ذلك منذ وقت طويل ، يا بياتريز ـ تلك الليلة فى غرناطة ـ انه الآن حلم باهت الذكرى . **(ثم يرتد فجأة وبسرعة مستعيدا أسلوبه المهذب المتهكم)** اغفرى لى ، لقـد أصبحت رجـلا متوحشا لا يذكر آداب السلوك . **(ينحنى ويقبل يدها بكل ما كان له فى شـبابه من شهامة الفرسان)** مرحبا بك ياعزيزتى فى بورتوريكو ، فى رعايتى . **(تنظر الى رأسـه المنحنية ، فتحمر وجنتاها بالسعادة والارتباك الساذج ، بينما تنزل الستار)** ...

المنظر الرابع

(بعد ثلاثة أشهر — فى مكتب ((منديز))
الرسمى بالقصر .غرفة واسعة ، عالية السقف،
خالية من الأثاث الا من منضدة ثقيلة فى
الوسط . ألوانها داكنة مقبضة ، تحمل الطابع
الكنسى الصارم الضيق الأفق . وفى ركن منها
مذبح أمامه شموع مشتعلة ، وعلى الجدران
معلقات ثقيلة تحجب ضوء النوافذ المرتفعة
المقوسة . وفى المؤخرة صليب ضخم معلق
على الحائط . تبدو الغرفة كلها صورة مكبرة
لغرفة راهب ، ولكنها تسبغ على المخيلة تأثيرا
قويا مقبضا بما فيها من طابع التركيز .

وللغرفة مدخل رئيسى فى المؤخرة ، فى
الوسط ، وباب جانبى أصغر الى اليسار ،
تحجبه ستائر .

الساعات الأولى من المساء . منديز جالس
الى المنضدة . يبدو مقطبا ، نافد الصبر ، يتسمع
منتظرا شخصا . يسمع صوت خطوات
تقترب . يستدير منديز فى مقعده فى تطلع

واهتمام. يدخل «كويسادا » مخترقا المعلقات، الى اليسار، وجهه متجهم يبدو عليه التصميم. يحمل سيفا ومسدسات فوق ثيابه التى دس أطرافها فى أحذية الركوب الطويلة ، وقد غطاه الغبار ، وبدا واضحا أنه قام برحلة ركوب شاقة . ينحنى لمنديز فى احترام)

منديز : بدأت أظن أنك لن تحضر أبدا . **(ثم فى قلق)** .. ما الأخبار ؟

كويسادا : الاجتماع منعقد . لقد تجمعوا فى القلعة خارج البلدة .

منديز : عظيم . اذن فالأمور تسير وفق خطتى .

كويسادا : انهم جميعا متفقون على أن دون چوان يجب أن يتنازل عن التفويض .

منديز : الا اذا أقلع باخنا عن كاثاى على الفور ؟

كويسادا : نعم ، فهم يتحرقون جنونا الى الذهب **(مستهزئا)** ذلك الذهب الذى أطلقت أنا الشائعات بوجوده هناك حسب تعليماتك .

منديز : وهكذا نتخلص من دون چوان وكل العناصر الساخطة فى الجزيرة بضربة واحدة .

كويسادا : **(متحمسا)** ولكنهم يطالبون أيضا بأن يحرق الهندى « نانو » أولا . انهم يعتقدون أنه قد سحر الحاكم ، ويعلمون بمقابلات نانو السرية مع دون چوان .

مننديز : (**فى غضب**) من الذى أخبرهم ؟

كويسادا : (**بعد لحظة تردد ــ متحديا**) أنا .

مننديز : (**فى غضب**) أيها الأحمق .

كويسادا : (**وقد أدرك الخطر ــ فى تواضع**) ولكن هذا الكلب ما يزال يرفض التعميد المسيحى .

مننديز : (**فى تجهم**) اهذا هو الوقت المناسب لمناقشة قضية هندى فرد ؟ أيها الأبله . انك تعلم مثلى تماما أننى أهدف الى مهاجمة دون چوان فى قضية واحدة ، قضية واحدة فقط ــ هى عدم ابحاره للبحث عن كاثاى بعد وصول التفويض الملكى . ما دخل أى « نانو » فى الدنيا بهذا ، سواء أعدم أم لم يعدم ؟

كويسادا : دخل كبير يا سيدى . لو لم يكن دون چوان قد وقع فى سحر « نانو » لكان قد أبحر منذ زمن طويل .

مننديز : وأنت أنبأت الغوغاء بذلك ؟ فليسامحك الله . هل كان من خطتى أن تستغل أنت تعطش الغوغاء للدماء ؟ لقد كنت أدبر الأمور من أجل ثورة سلمية توقظ چوان وتنبهه الى ضعفه وعاره فيبحر . لقد تجاسرت على اثارة نوع من الجنون كفيل بأن يكتسح ببساطة ، كل السلطات المعترف بها . خبرنى بسرعة .. فى أى حال تركت الغوغاء ؟ (**كويسادا يتحاشى نظراته . فيدق مننديز على المنضدة بعنف**) أجبنى .

كويسادا : (**مراوغا**) كانوا يشربون الخمر ...

مننديز : **(فى ثورة ، وقد سرت فى صـــوته نبرة الارتيـــاع والاحساس بالخطر)** آه !

كويسـادا : **(وقد انكمش الآن تماما)** كانوا يصرخون داعين الى الزحف على القصر . وكان الدون أوفييدو يحاول قمعهم .

مننديز : **(فى شراســة وازدراء مرير)** أيها الأرعن اللعين . بل أنا الأحمق اذ وضعت فيك ثقتى .

كويسـادا : **(راكعا على ركبتيه ـ وقد بلغ به الجبن والانكماش كل مبلغ)** اغفر لى يا صاحب النيافة .

مننديز : عملك هذا خيانة لى . وسأعاقبك . عندما تقلع هذه الحملة باحثة عن تلك الخرافة الذهبية ، كاثاى ، فستذهب أنت معها ، ولتخطىء هناك ما شاء لك الخطأ . **(ينهض ويذرع الغرفة متجها الى النافذة فى المؤخرة)**

كويسـادا : **(فى مذلة)** أنا أقبل التكفير عن ذنبى ، فى تواضع .

مننديز : **(فى مرارة)** انظر الآن الى أول ثمـار تجنيهـا من تقـواك المفرطة . **(مشـيرا)** ان الأفق الجنـوبى شعلة نار .

كويسـادا : **(ناهضا)** لابد أنهم أشعلوا النار فى قرى الهنود .

مننديز : الدماء والنيران . رقصـتك المرحة تبـدأ بداية طيبة . **(ويشد الستار فينسدل)** ليس غير جوان يسـتطيع أن يمسك الآن بزمامهم ، لو أنه يعدهم بالابحـار فورا . ولـكن لا ، أن كبرياءه أعظم من ذلك . سـيحارب التمـرد المسلح الى النهـاية . وسنهوى جميعا فى هذا الدمار .

كويسادا : (**باحتقار**) انه لم يعد كما كان — منذ أن سحره « نانو » .

مننديز : (**فى ازدراء**) أيها الأحمق (**ثم فى اصرار**) ومع ذلك فهناك حقيقة فيما تقول . لقد أصبح ضعيفا ، مذ وقع بين تأثير « لويز » وتدخل الفتاة . (**ثم فى اقتضاب**) هيا . فهناك فرصة رغم ذلك . استدع لى دون چوان على الفور . (**ويقول العبارة الأخيرة فى صرخة تدل على صبر نافد**)

چوان : (**من الخارج فى المؤخرة ، وبتهكم**) لا داعى الى أن توفد لى رسولا . (**يدخل . بدت عليه الشيخوخة فى هذه الأشهر الثلاثة . وضح الشيب فى لحيته ورأسه . ومن وراء القناع الساخر المرير فى وجهه يبدو ذلك التعبير عن الصراع العميق المستتر ، بما فيه من ألم وعذاب ، كأنما يخوض معركة مع نفسه**)

مننديز : (**وقد أخذته المفاجاة ، وأشفق مما عسى أن يكون چوان قد سمع**) هل سمعت ؟

چوان : (**باحتقار**) ما صرخت به فقط . هل أنا راهب يتسمع على الناس من ثقب الباب ؟ (**يقول هذا وهو يرشق كويسادا بنظرة**) ولكنى أعرف دسائسك . اجتماع الضباع العاوية هذا . لقد سمعت الشائعات ، كما ترى . أنت تريدنى أن أرحل بناء على مطالبهم ، وبذا تتوافر لك الحرية لتحكم هذه الجزيرة باسم الشريعة المقدسة ؟ أليس كذلك ؟

منندیز : **(ضابطا غضبه)** لقد فقدت رشدك . أنت لا تدرك ان الأمور قد بلغت أوج التأزم ، والحكم قد انزلق من بين أصابعك وانت تلهو بدور الأب الحنون .

چوان : **(وكأنما لدغته العبارة الأخيرة ــ فى وحشية)** هذا كذب .. **(ثم متمالكا نفســه)** اقول لك ثانية ، يا ديیجو ، سأرحل عندما أشاء انا ، لا أنت .

منندیز : **(محاولا اقناعه)** لقد ظللت تكرر هذا القول دائما ، ومع ذلك فان اعتزالك قد جلب علينــا الدمار ، جنودك وبحارتك يتمردون علانية ، والغوغاء قد ثاروا . **(فى حمية)** چوان .. أترضى بأن يطيح بنا التمرد ؟ ألم تعدهم بكاثاى ؟

چوان : **(فى كبرياء)** أنت الذى وعدتهم بهــا ، باســمى ، أيها الخسيس ، لكى تضمن التخلص منى ...

منندیز : **(مستثيرا اياه ، وهو يلحظ بمهارة رد الفعل عند چوان)** لقد وعدتهم بذلك لأننى ظننت انك ما تزال چوان پونس دى ليون . ولــكنك لم تعــد ذلك الرجل ــ لم تعــد أكثر من عبد يعمــل من أجل النزوات العاطفية لفتاة . أنت أضعف من أن تقوم بالحكم هنا ، وأضعف من أن تنهض بمشروع كاثاى . **(تمتد يد چوان نحو ســيفه . منندیز يستمر فى كلامه متجاهلا ذلك)** واذن ، فمن أجل أسبانيا ، أترك منصبك ، وتنــازل عن تفويض الاكتشاف لشخص آخر لديه الشــباب ، والشــجاعة على المخاطرة .

چوان : **(وقد أهاجه القول فاستل سيفه الى منتصفه)**

حذار يا دييجو . ان المسح الذى ترتديه لن يغفر لك مثل هذه الاهانات .

مننديز : **(فى نبرة تلطف ومداهنة)** اغفر لى يا چوان . انما أهينك من أجل صالحك . فلتمض نحو أكبرانتصار لك . لا تمكث هنا فى ذهول حتى تلحقك الهزيمة المشينة .

چوان : **(وقد اهتز لقوله)** سأرحل . ولكن ينبغى أولا أن أعلم ــ أن أعلم على وجه التحقيق ودون شك ــ أين تماما .. **(ثم يتوقف فجاة)**

مننديز : **(متسائلا)** ماذا ؟

چوان : **(فى تشكك)** لا شىء .

كويسادا : **(الذى كان يصغى فى اهتمام محموم ــ يشير صوب چوان فى لهجة اتهام)** انه يزور « نانو » كل يوم . أنظر الى عينيه . انه مسحور . **(يفزع چوان وكأنما يشعر بالذنب ، ولكنه يحاول تجاهله فى احتقار)**

مننديز : هدوءا يا كويسادا . **(ينظر الى چوان)** هذه المقابلات غامضة يا چوان .

چوان : **(بسرعة ــ يستدير نصف دورة متجنبا عينيه ــ محاولا أن يبدو غير مكترث)** أنا فى حاجة الى معلومات دقيقة فى رحلتى لا يستطيع أحد أن يقدمها لى غير « نانو » . ولهذا تأخرت .

مننديز : **(ناظرا اليه بحدة)** هكذا ؟ لقد ظننت أن محبتك لبياتريز هى التى عاقتك ؟

چوان : **(فى عنف)** كلا ..

مننديز : **(باهتمام)** ولم هـذا العنف ؟ هـذا أمر طبيعى جدا . لقد كنت تعيش وحيدا . فاذا ما وجدت ابنة ، فى شيخوختك ..

چوان : **(وقد امتقع وجهه غضبا وألما)** ابنة ؟ كيف يمكنها أن تنظر الى ك ...

مننديز : **(مهدئا ولكن بنبرة فيها اصرار على الاغاظة)** كانت تنظر اليك دائما باعتبارك بطلهـا . باعتبارك الآمر العظيم فى حياتها . لابد أنها تعجب الآن من ضعف الشيخوخة فيك .

چوان : **(فى اهتياج)** أتجرؤ على اغاظتى باسمها ؟ سأرحل ، أقول لك سأرحل ، سـأرحل فى أول يوم بعد أن أتبين ... **(وقد سرح خاطره . يبدو وقد اهتز)** كفى يا دييجو . سأفعل ما أريد ، وفى الوقت الذى أريد . **(ينـدفع خارجا من المؤخرة كأنما تطارده أرواح شريرة . ينظر مننـديز وراء چوان بينما تظهر على وجهه ، تدريجيا ، ابتسامة تهكم ورضى ، كأنما ثبت له الدليل على شىء)**

مننديز : **(متحدثا الى نفسه والى كويسادا فى نفس الوقت)** كان ينبغى أن أخمن هذا من قبل . ولكن من كان يتصور ... انه مسحور ، بالتأكيد .

كويسادا : **(بحماس)** نعم .

مننديز : **(بجفاف)** ولـكنك لا تلقى اللوم على السـاحر الصحيح . السـاحر المسئول لا ذنب له **(يفتح كويسادا عينيه حائرا فى فهم هذا اللغز . مننديز**

يفكر هنيهة ثم يلتفت الى كويسادا) أحضر الآنسة بياتريز .

كويسادا : نعم ، يا صاحب النيافة . **(ينحني ويخرج ، من اليسار . يجلس منديز مفكرا . ويبدو عليه أنه يرسم خطة حملته . وبعد لحظة تدخل بياتريز وتنحني أمامه باحترام)**

بياتريز : **(في تحفظ)** هل طلبت رؤيتي يا صاحب النيافة ؟

منديز : **(يومىء برأسه ويشير الى مقعد . ويتفحص وجهها لحظة في تمعن ، ثم يبدأ بلهجة ساخرة مداعبة)** لم يدع الجمال شيئا قائما في مكانه في طروادة القديمة . هل أنت هيلين أخرى يا بياتريز ؟

بياتريز : **(مرتبكة)** أنا ... لا أفهم .

منديز : **(في برود وجفوة)** لا تفهمين أن الثورة تغلي في بورتوريكو ؟ ثورة ستطيح بنا جميعا ..

بياتريز : **(حائرة)** ثورة ؟ **(ثم في حيوية)** من ذا يجرؤ على الثورة في وجه دون چوان ؟

منديز : **(مقللا من شأنه)** چوان لم تعد له قوة . جنوده أنفسهم قد ثاروا عليه . انه يواجه الدمار . هل تفهمين ؟ ليت لي كلمات من نار فأدمغ بها عقلك . أنا أقول لك ، وضميري شاهد على ما أقول ، وبصفتي قسيسا من قساوسة الرب ، انك أنت المسئولة ...

بياتريز : **(مصعوقة)** أنا ؟ أنت تمزح .. **(ثم في استياء مترفع)** أنا أؤذي دون چوان وهو أبي الثاني ؟

منديز : **(يبدو وقد أصبح حيال غضبها أكثر برودا)** وكان

لك أكبر الاثر فى تحويله الى الطراوة والتحلل من الصرامة .

بياتريز : (**ساخطة**) تعنى لأننى كنت أشفق على الهنود من العذاب ؟

مننديز : (**فى جفاف**) فلنحكم على شفقتنا بنتائجها . هؤلاء الوثنيون لم يعودوا يعرفون الخوف . انهم يتحدون عقيدتنا المقدسة ، ويهزأون بالتعميد المسيحى . هؤلاء الهنود يهجرون العمل . واذ يقضى دون چوان وقته معك ، فانه لم ينس واجباته فى الحكم فحسب ، بل نسى أيضا قسمه بأن يبحث عن كاتاى . لقد طال انتظار الجنود والبحارة دون عمل . فهم الآن لا يوقرونه كقائد شجاع سيقودهم الى المجد ، بل يحتقرونه ، ويعتبرونه مدعيا ومماطلا ، لأنه فقد الشجاعة على الحرب والعمل ـ وهكذا دبروا مؤامرتهم . هذه هى الحقائق . فهل تنكرين أن تأثيرك كان قويا عميقا عمق الجذور ؟
(بياتريز وقد أخذتها قسوة هجومه فلم تعد تعرف كيف تجيب ، فيتنحين هو ذلك ليمضى) وهل تستطيعين أن تنكرى أن تغيرا كبيرا طرأ على دون چوان منذ وصولك ؟ لا يمكن طبعا أن تغفلى عن ملاحظة هذا . . .

بياتريز : انه يبدو فى بعض الأحيان كما لو أصبح خائر العزيمة .

مننديز : (**فى عنف**) خائرا ، مشلولا . تشرد أفكاره كأنه رجل هرم . أعتقد أن قواه العقلية فى اضمحلال .

بياتريز : (**فزعة**) كلا . . . كلا . . .

منندیز : لابد أن تواجهى الحق . **(فى عنف)** عندما ينتزع الطموح من رجل مثل دون چوان ، فان مثل هذا الرجل يذوى وينتهى . لقد جعلته ينسى كاثاى . لماذا ؟ لماذا لم تحثيــه على الذهاب ، لصالحــه هو ؟ عندما جلبت له التفويض الملكى كنت تحلمين به كما يحلم هو بنفسه ... فاتحا وبطلا ...

بياتريز : **(فى تردد)** قال لى الأب لويز اننا يجب أن نبقيه هنا، والا راحت كل أعماله الطيبة هباء ...

منندیز : ان هذه الثورة ستطيح بأعماله الطيبة فى ساعة واحدة . **(ثم ملاطفا)** الأب لويز رجل طيب .. ولكنه أعمى . وأنت فتاة ، ولا تجربة لك . تعالى **(يتريث وهــو يرقبها بتمعن، ثم يأخذ بيدها ويسير بها الى النافذة، ويزيح الستار)** أنظرى ..

بياتريز : **(صرخة فزع)** آه ...

منندیز : هل صدقت الآن أن الثورة قائمة ... وأنها خطــر على چوان ؟

بياتريز : **(مرتاعة)** النار ...

منندیز : والقتل ... فى القرى الهندية . أنظرى الآن ماذا فعلت شفقتك عليهم . ولن يقف الأمر عند هذا . ان هذه الا أول شرارة للثورة . سيزحفون علينــا بعــد ذلك ... **(بلهجـــة مؤثرة)** بياتريز ، أنت تستطيعين انقاذ دون چوان . انه يحبك .. كابنته ... ادفعيه الى الرحيل فورا .. أيقظى البطل فى أعماقه . ردى اليه العقل والرشاد . انه صــديقى القديم ، وأنا أضرع اليك من أجله يا بياتريز .

بياتريز : **(مبلبلة الخاطر)** نعم .. نعم .. ولكن أعطني مهلة لأفكر .. لأصلى طالبة الهداية **(وتركع أمام المذبح)**

مننديز : **(فى نفاد صبر)** لم يعد هناك وقت ... **(تسمع ضجة أقدام مسرعة . ويدخل أوفييدو منتعلاحذاء الركوب ، ويغطيه الغبار ، ويشي وجهه بملامح القلق والاحساس بالخطر)**

أوفييدو : **(دون ان يتوقف ليرى من هناك ــ ينفجر)** دييجو، لقد حاولت أن أكبح جماحهم ، ولكنهم جنوا . انهم يزحفون على البلدة .. چوان سيضيع ...

مننديز : **(مخاطبا بياتريز التى استدارت فى فزع)** أتسمعين؟

أوفييدو : لقد جاء الوقت للتخلى عن هذا الأحمق المريض... ينبغى أن نقود هذه الثورة صراحة .

بياتريز : **(تنهض واقفة وتواجهه ــ وعيناها تومضان)** جبان ! **(يتراجع ويده على السيف، وهويحملق فيها)**

مننديز : **(فى اهتمام)** اذهبى يا بياتريز .. **(تمر باوفييدو وهى ترشقه بنظرة ساحقة ، وتخرج ، من المؤخرة. يلتفت مننديز الى أوفييدو بابتسامة تهكم ، ولكن فيها قلق أيضا)** لو أنها تتحدث الى چوان كما تحدثت اليك ، لانتصرنا بالرغم من كل شيء يا صديقى .

ستار

المنظر الخامس

(زنزانة ((نانو)) ـ وهى كهف دائرى الشكل جوفته الطبيعة فى الصخور ، وشقته يد الانسان فى موقعه تحت مبنى الحكومة . والمكان ضيق ، ولكنه مرتفع ذو شكل أسطوانى . بضع درجات منحوتة تؤدى من الأرض فى المؤخرة الى باب فى أعلى . الرطوبة تبلل الجدار المرتفع . الى اليمين أريكة صغيرة . مصباح على احدى الدرجات السفلى . وفى الوسط يقف جندى متين البنيان ، بادى الشراسة ، قد شمر أكمام قميصه عن عضلات ذراعيه ، ينفخ بمنفاخ على فحم فى موقد وقد تأجج احمرارا وبدت فيه عدة قضبان من حديد . وعلى الحائط فى المؤخرة يرى نانو معلقا ، وذراعاه فوق رأسه ، وقد قيد من رسغيه بسلاسل مثبتة فى الصخر ، ولا تكاد قدماه تمسان الأرض . رأسه الآن متدلية على أحد جانبيه كأنه فى نصف وعيه ، وجسمه نحيل ضامر .

الباب مفتوح ينفذ منه بصيص دائرى من الضوء الباهت على الدرج . ويحتجب هـذا الضوء اذ يهبط شخص داخلا من الباب هو دون چوان .

يغلق الباب خلفه ويهبط، ثم يتوقف عندما يصبح فى مواجهة رأس نانو ، وينحنى عليه محدقا فى وجه الهندى . فيفتح هذا عينيـه وتتصلب رأسه فى كبرياء فوق كتفه . يحدق كل منهما فى عينى الآخر . ويرخى چوان عينيه شاعرا بالذنب ، ويبتعـد عنه ويهبط الى الأرض حيث يقف الجنـــدى فى هيئـة ((الانتباه)))

چوان : **(بصوت أجش)** هل تكلم ؟

الجندى : ولا كلمة واحدة يا سيدى .

چوان : اذن فأنت لم تطع . . .

الجندى : **(مشـيرا الى قضبان الحـديد فى النـار)** حاولت معه كل الوسائل التى اعرفها . . ولكنه مصنوع من فولاذ . .

چوان : **(ينظر الى ((نانو)) بكراهية عميقة)** أيها الكلب . . **(ثم يستدير الى الجندى)** اذهب وتول الحراسـة فوق . .

الجندى : نعم يا سيدى **(ينحنى ليلتقط الموقد)**

چوان : **(بصوت أجش)** كلا .

الجندى : **(يرمقه بنظرة وقد فهم مرماه)** كماتشاء ياسيدى. **(يصعد الدرج ويفتح الباب ، ثم يختفى تاركاالباب ينغلق وراءه . ينهالك چوان على الأريكة الحجرية فى اليمين ، ثم يحدق الى أعلى صوب نانو الذى يرد نظرته بنظرة تحد لا يلين . فترة صمت)**

چوان : **(وعيناه الآن تنظران الى الأرض فى بلادة ــ مخاطبا نفسه بصــوت نصف مرتفع)** ديبجــو لم يكذب ، فالعاصفة تتجمع **(فى يأس مرير)** ماذا يهم؟ أستطيع أن أبتهل الى الله أن يحـــدث طوفان يفنى الجنس البشرى.. لولا بياتريز. **(يزمجر ثم يرفع عينيه من جديد صوب « نانو »)** لماذا تنظر الى ؟ لا أستطيع ابدا أن أقرأ ما فى عينيك ، انهما تريان عالما آخر.. ماذا تكون انت ؟ أنت لحم ودم ، ولكن ليس مثل لحمنا ودمنا . أم انت من طين ؟ أنا أجىء بعد ذلك ــ او قبله ــ ولكننى ضائع ، أعمى، فى عالم تزوغ فيه عيناى على الأمور السطحية دون أن تنفذ الى الأعماق . أى قيم تمنحك قوة الحياة ؟ أجب ؟ لابد أن أعرف الألفاظ التى أستطيع أن أتوسل بها **(الهندى صامت لا يتحرك . فترة صمت . وفجاة كأنما تذكر ، يقفز ناهضا فى حمى من نفاذ الصبر)** أجبنى أيها الكلب. لابد أن أجــد العزيمة على العمــل ، وإلا فالعــار فى انتظارى ...

نانو : **(فى وقار ــ بصوت ضعيف)** ان الآلهة غضبى .

چوان : **(بفرح عامر)** تتكلم أخيرا .. نانو ، لماذا بقيت صامتا وأنا أتوسل اليك .

نانو : لقد أصمت الآلهة أذنيك .

چوان : **(ماضيا فى حديثه وقد تملكته أفكاره ، دون اعتبار لشىء)** چوان پونس دى ليون يعذب أسيرا لا حول له ... لماذا دفعت بى الى مثل هذا العار ؟ لماذا لم تجب على سؤالى ؟

نانو : **(باحتقار)** لقد تعب لسانى . لقد ظللت شهرا بأكمله أجيب على أسئلة كل يوم .

چوان : **(فى عنف)** ولكنك كذبت . قل لى الصدق الآن . أين الينبوع ؟

نانو : **(دون اكتراث، مغمضا عينيه)** الآلهة وحدها تعلم .

چوان : نفس الأكذوبة ! لقد أنبأتنى أولا ان رجال قبيلتك السابقة كانوا يعلمون . لابد أنك تعلم . هذا هو انتقامك ... لموت زوجاتك وأطفالك . أينبغى أن أقسم لك ثانية انهم قتلوا رغم أوامرى الصارمة ؟ هيا انسهم . سأمنحك من تشاء من كل نسائك فى الجزيرة ، سأمنحك حريتك . سألتمس من الملك الانعام عليك ... سأعيد اليك أرضك . أى شىء لو أجبتنى . **(يظل نانو صامتا . يطلق چوان صرخة هائجة ثم يندفع الى الموقد ويأخذ قطعة فحم متأججة بالملقط ويمسك بها أمام عينى الهندى)** أيها الكلب ، سأحرق هذا الازدراء من عينيك ... **(يحملق الهندى فى الفحم المحمى دون تأثر . چوان يتركها تسقط على الأرض وهو يئن بزمجرة بؤس يائسة)**

غفرانك . المغفرة بحق المسـيح .. انه انت الذى تعذبنى . نانو ، انا أحترق كأننى فى الجحيـم . انا أحب . . . (**ثم يتوقف فجاة ، وقد جمد يأسا بمـ فى ملامح الهندى من عدم اكتراث عنيد لايتزحزح ، ويلقى بنفسه على الأريكة فىجمود من فقد الشعور، وفىالنهاية يستل سيفه ببطء ويتحدث كأنه ميت**) اما أن تتكلم، واما ان تموت . أقسم على ذلك .

نانو : (**فى ترفع واحتقار**) ما هو الموت ؟

چوان : (**فى بلادة**) أنا أيضا سأموت . لعل فى القبر سلاما وسلوى (**بعد فترة صمت**) أنتاحمق يا « نانو ». لو قبلت مسـاعدتى لجعلتك مرشـدا للأسـطول تقودنا الى بلادنا ، فاذا عثرنا على الينبوع أصبحت حرا ، ولن يصيب قومك أذى . أما تشعر بالحنين أبدا الى موطنك ؟

نانو : (**الذىكان يسمع وقد أثير اهتمامه**) الوطن ؟ أرض الأزهار ؟ وطنى ، بلد المحاربينالعديدين (**بعدصمت**) ستدعنى أرشد القوارب الطويلة المجنحة . . . الى وطنى ؟

چوان : (**فى اهتمام**) نعم (**فى ترقب شديد**) اتساعدنى ؟ قل لى (**وقد قفز الآن واقفا على قدميه**)

نانو : الآلهة وحدها . . . (**يمنع نفسه فجاة فىاقتضاب**)

چوان : (**فىسورة غضب**) آه ! (**ويرفع سيفهكأنه سيغمده فى صدر الهندى**)

نانو : (**ناظرا فى عينى چـوان دون أن يلحظ التهـديد**)

ان ألسنة الشياطين البيض زائفة . كيف لى أن أثق بكلمتك ؟

چوان : أقسم لك يمينا مقدسة **(يرفع يده)**

نانو : الهكم اله أكاذيب .

چوان : **(فى وحشية)** اقسم بالهك اذن .. ما دام الهى قد تخلى عنى .

نانو : **(يرفع رأسه ، ويغمغم بعض الأدعية كأنما يطلب مغفرة — ثم ينظر الى چوان بانتصار وحشى)** سأرشدكم .. ولكن تذكر أن الطريق طويل .

چوان : **(فى انتصار)** اخيرا . ماذا يهم طول الطريق أومشقتها . **(رافعا ذراعيه)** آه ، قسما بدم المسيح ، اننى لأشعر بالفعل ، بحياة جديدة ، ارادة الحياة . أستطيع الآن أن أغزو . **(دقة بمقبض سيف على الباب ثم ينفرج مفتوحا)**

الجندى : عفوك يا صاحب الفخامة .

بياتريز : **(تنادى عليه من فوق)** دون‌چوان . دون‌چوان .

چوان : **(منتشيا فرحا)** صوتها . هذا فأل حسن **(يهرول صاعدا الدرج)**

نانو : **(رافعا عينيه ثانية نحو السماء — فى حمية دينية)** أيها الروح الأكبر . اغفر لى كذبتى . سيكفر دمه عن ذلك .

ســـتار

المنظر السادس

(نفس المنظر الثالث ــ فناء قصر الحاكم ــ غسق خانق . السماء ملبدة بالسحب . صوت بياتريز ــ من اليسار ــ ينادى من أعلى كما حدث فى نهاية المنظر السابق)

بياتريز : دون‌چوان . دون‌چوان . **(يسمع صوته يقول « بياتريز » . تدخل ممتقعة مضطربة وتجرى الى المؤخرة تبحث عن آثار التمرد والثورة ــ ثم تسرع عائدة فى الوقت المناسب لتلتقى بچوان ، الذى يدخل من اليسار . هو فى حالة تحمس وتوتر . وجهه بالغ الامتقاع ، وعيناه تومضان وميضا عنيفا . وما يزال سيفه المسلول فى يده . تتراجع هى الى الخلف وقد راعتها هيئته)**

چوان : **(فى نبرة متوترة مرتفعة)** أهو الينبوع الذى كان ينادينى ، أم أنت يا بياتريز ؟ بل أنت ، لأنك أنت الينبوع . **(يأخذ بيدها فى اندفاع ويقبلها)**

بياتريز : **(فى تعجل)** جئت أحذرك .

چوان : **(بنظرة حادة)** تحذريننى ؟ اذن فقد قابلت ديجو؟ آه . .

(يشير بسيفه اشارة احتقار ، كأنما يطـرح ثورات الدنيا كلها جانبا) عندما تأتى الساعة فسأكون رجلا قويا. ان العزيمة تتنفس فى جوانحى من جديد. انسى كل شيء آخر يا بياتريز . أخبرينى بما يجـول فى خاطرك . هل كنت سعيدة هنا معى ؟

بياتريز : **(لا تدرى ماذا تقول أو تفعل)** نعم . نعم . **(محاولة العودة الى مهمتها)** ولكن ...

چوان : لقد جئت الى نعمة .. نعمـة كانت نقمة على . **(باقتضاب)** أما لاحظت كم كبرت فى السن ؟

بياتريز : **(مقتنعة أنه فقد رشده ـ مصرة على أن ترده اليه ـ خائفة ، ولكن مشفقة)** تستطيع أن تعود شابا من جديد .

چوان : **(منتشيا)** سافعل **(ثم فى غموض)** هذا عالم غريب، ما تزال به أعاجيب كثيرة لم تكتشف بعد .

بياتريز : **(ترى الفرصة سانحة لتدلى بما عندها ـ بسرعة)** اذن فاكتشفها . سيجعلك البحث شابا .

چوان : **(بعمق وقد أثير تفاؤله)** من شفتيك انت ! هذا فأل طيب آخر **(بلهفة)** فلنفرض أننى شاب .. فمـاذا بعدئذ ؟

بياتريز : عجبا ، بعد ذلك تصبح سعيدا .

چوان : **(بقوة)** هل تعديننى ؟ أما أحببت أبدا ؟

بياتريز : **(حائرة)** أحببت ؟

چوان : ما دمت تتحدثين عن السعادة .

بياتريز : أحببت أمى .. وأبى .. وأحبك أنت يا دون چوان .

چوان : **(فى نهم)** آه ، قولى هذا تانية . هذه الكلمات دماء لقلبى .

بياتريز : **(فى جد واهتمام)** احبك كما كنت أحب ابى .

چوان : **(فجأة ، وقد جرحه ذلك على الفور)** الم يتسلل الحب الى احلامك قط ؟ لست راهبة . هيا ، حدثينى عن صورة الرجل الذى تحلمين به حبيبا لك .

بياتريز : **(وقد قررت أن تتخلص من هذا الموقف بالمداعبة)** هذا سر خطير .. هل انت مصمم ؟ حسن ، اذن فهو شبيهك **(يطلق چوان صرخة سعادة ويميل نحوها . وتضيف هى مسرعة)** أنت كما وصفتك أمى فى الحرب أمام غرناطة .

چوان : **(بمرارة)** عندما كان لى الشباب . ولكننى كنت أحب المجد وحده حينذاك . الم تنبئك هى بذلك ؟

بياتريز : بالطبع ، ولهذا قالت لى امنحيه الحنان والرحمة .

چوان : **(فى حزن)** لقد حققت رغبتها .. أم تراه كان انتقامها ؟ **(ثم فى اقتضاب)** وماذا اذا أصبحت أنا نفسى ذلك الشبيه ؟ فارس غرناطة ومعه منحتك من الحنان والرحمة ؟ ماذا اذن ؟

بياتريز : **(وقد أخافتها غرابته)** آه ، أنت الآن تمزح يا دون چوان **(تغتصب ضحكة)**

چوان : **(بانفعال)** كلا يا بياتريز **(تبتعد عنه مدفوعة بعامل غريزى . يهدىء هو نفسه)** كفى هذا الآن . انى أخاف ضحكك . فلنبدأ من النهاية أولا ، وعندئذ لن تضحكى . أنت ... **(يحاول أن يقرأ ما يجول فى**

عينيها اللتين اكتسبتا غموضا ــ يعــذبه الشــك) ماذا ستفعلين ؟

بياتريز : **(متغلبة على تهيبهــا ــ بنبرة اقناع رقيقة)** أنت مريض يا دون چوان . عل لك ان تصغى الىالعلاج الذى أقدمه لك ؟

چوان : نعم .

بياتريز : **(بحمية)** أبحر واكتشف كاثاى .

چوان : **(مأخوذا ، معذبا)** أنت أيضا تحكمين على ، ولكنى أقسم لك اننى طالما تمنيت أن ابحر . لقد كرهت جبنى . لقد قمت بدور الخائن لكل حلم وكل أمل عظيم . ولــكننى يا بياتريز عندما أرحل سأترك حياتى ورائى معك. ولذلك كنت ــ الى أن علمت ــ أخشى أن أفقد ما لدى **(ثم يتغير بسرعة الى شيء يشــبه قرارا منتصرا)** ولــكن هذا قد مضى . وعزيمتى قد بعثت الى من الموت . بعثتها شفتاك . سأرحل على الفور .

بياتريز : أوه ، أنا سعيدة .

چوان : **(فى حزن)** سعيدة اذ أتركك ؟

بياتريز : بل سأكون حزينة وســأشعر بالوحدة . ولــكن لصالحك أنت ...

چوان : عدينى بمنحة واحدة .

بياتريز : **(فى اهتمام)** أى شيء ؟

چوان : عدينى ألا تتزوجى حتى أعــود .. أو تســمعى أننى مت .

بياتريز : **(مرتبكة)** لم افكر فى الزواج اطلاقا .

چوان : (فى جد شديد رغم المجهود البائس الذى يبذله ليسبغ على صوته رنة المزاح) الى أن أقدم اليك شبيهى ؟

بياتريز : (وقد ارتاح بالها فتضحك فى سهولة) قد أغير رأيى عندئذ يا دون چوان .

چوان : هل لك أن تختمى هذا الميثاق بقبلة ؟ (يغتصب ابتسامة ليخفى تحرقه)

بياتريز : (دون ترحيب ـ تغتصب ضحكة) نعم يا دون چوان (ترفع وجهها نحوه ويهم بتقبيلها على شفتيها ، ولكن شيئا فى وجهها يوقفه ، فيقبلها فى وقار على جبهتها ـ يحمل نفسه على الابتسام)

چوان : هكذا على جبهتك ، للذكرى . أما الأخرى ـ قبلة الحنان ـ فما تزال وعدا لأحلامى (تسمع ضجة أقدام متعجلة ، ويبتعد چوان عن بياتريز فى شعور بالاثم . يدخل لويز فى المؤخرة . وجهه مضطرب ملىء بالقلق والشعور بالخطر)

بياتريز : (تحييه باهتمام ، وهى سعيدة بدخوله الآن) الأب لويز .

لويز : چوان . أنا أحمل اليك أنباء فظيعة (يرى سيف چوان مسلولا) آه انت تعلم اذن . لقد حان الوقت لكى تشرع سيفك .

چوان : (فى ازدراء) أتعنى فتنة الرعاع ؟ عندما أقول لهم ان الأسطول سيبحر غدا ..

لويز : أتعطيهم « نانو » ليحرقوه ؟ هذا مطلبهم الأول . (تطلق بياتريز صرخة ارتياع)

چوان : **(مأخوذا ــ غير مصدق)** أسلم « نانو » ؟ لا . هذا مستحيل . أنت سمعت اشاعات ...

لويز : لقد ألهب « كويسادا » قسوتهم الى حد الجنون . **(يشير الى حيث يرى وهيج أحمر يصعد الى السماء)** أنظر . انهم يحرقون الحى الهندى . رحمتك يا رب .

چوان : **(فى ثورة غضب)** يقتلون نانو ؟ الكلاب . سآمر فصيلة من حرسى ..

لويز : **(ينظر اليه فى رثاء)** ان حرسك على رأس الفوغاء. **(مؤنبا)** چوان . چوان . لماذا تعيش فى حلم ؟ لقد حذرتك مرة بعد مرة . لو لم يكن لك من الحاكم الا اسمه ، فان ...

چوان : **(متهاويا على الأريكة ــ فى غباء)** استدع الحرس . لابد أن آمرهم بالتفرق .

بياتريز : **(فى رثاء)** ان عقله مريض ..

لويز : **(فى شىء من الحزم)** هل لك أن تتركينا يا بياتريز ؟

بياتريز : **(مطيعة)** نعم يا أبتاه . **(ثم فى حماس)** لابد أن أقابل الأسقف مننديز . **(وتسرع بالخروج الى اليمين)**

لويز : **(يتقدم ويربت على ظهر چوان ــ فى تجهم)** چوان ، استيقظ . أستحلفك بالله .

چوان : **(يقفز واقفا متهيئا للقتال)** سأحمى حياته بحياتى.

لويز : لكى تعذبه أنت بنفسك ؟

چوان : **(بعنف يخالطه شعور بالذنب)** كذب . **(متشككا ــ باستياء)** هل قابلته .؟ لقد أصدرت أوامر ..

لويز : لقد مضت عدة أسابيع منذ صدر لى الاذن برؤيته. وكنت أنت تتحاشى مقابلتى ... فلماذا ؟

چوان : (**بصوت أجش**) لأننى لا أطيق محاولتك ادخاله فى المسيحية . اريد نانو كما هو .

لويز : لأنك تفضل أساطيره الوثنية .

چوان : (**مانعا نفسه من الانفجار غضبا**) أساطير ؟ فيم الأساطير ؟ ان كاثاى موجودة هناك (**ويشير**)

لويز : لم أكن أتكلم عن كاثاى . أنت ستبحر غدا . هل معنى هذا أنك استطعت أخيرا أن تنتزع من عذاب هذا الهندى البائس ايمانا بالينابيع السحرية ؟

چوان : (**فاقدا سيطرته على نفسه ــ هائجا**) أيها الأحمق. انت مثل هؤلاء الأغبياء الذين هبوا فى وجه كولمبس واتهموه بالكفر عندما قال لهم أن الأرض كروية . أصغ الى . أنا لا اصدق « نانو » . ولكنى أؤمن بالطبيعة . ان الطبيعة جزء من الله . انها قادرة على الاتيان بالمعجزات . ونحن ، منذ اكتشفنا هذه الأرض ، أما وجدنا عجائب لم نكن نحلم بها من قبل ؟ ان ما جاء فى قصة « نانو » صادق بالنسبة للحقائق التى نعرفها . ان وطنه قارة جميلة . أرض ازهار على حد تعبيره . ألا تعرف كاثاى هى أيضا باسم (الأرض المزهرة) ؟ وهناك مدن عظيمة مسورة ، سقوفها من الذهب ، تقع فى الداخل غربا . أليست هذه ، دون أدنى شك ، أرض ماركوبولو ؟ والينبوع موجود فى كاثاى . كل الأدلة من كل ناحية فى العالم تثبت ذلك . وسأجد الينبوع .

لويز : **(فى رثاء)** ولـكن هـذا الدليـل مجرد خرافة ، اسطورة ، او احلام شعراء .

چوان : **(فى هياج)** هل جعل منك الصوم والصلاة احمق غبيا ؟ ماذا كان لدى كولمبس من ادلة ؟ وأنت .. أنت تؤمن بأن المسيح عاش ومات . هل تحدثت الى اناس راوا المسيح فى الاصطبل او على الصليب ؟

لويز : چوان ... هذا كفر !

چوان : **(فى يأس مرير)** اذن فليـكن ذلك . لقد صليت لله عبثا .

لويز : چوان !

چوان : **(واضعا كل قوة ارادته فى الكلمات)** الا فلأكن ملعونا الى الأبد ، على أن تمنحنى الطبيعة الشباب فى هذه الحياة الدنيا مرة ثانية .

لويز : **(مرتاعا)** چوان ، انت تتحدى ربك .

چوان : لا اله الا الحب ــ ولا جنة الا الشباب .

لويز : **(ينظر بامعان الى وجهه المعـذب فيتبين الحقيقة فجأة ، ويقول فى نبرة رثاء عظيم)** اذن فهذا هو الأمر .. لقد كنت أعمى . كنت اظن أن حبك قد رأى فيها .. طفلة .. ابنة .

چوان : **(بقوة)** طفـلة .. اجل ، ولكن لفترة .. الى أن كان ذات صـباح حين كانت واقفـة الى جـوار الينبوع ، فوجدت فيها امرأة ، بل أكثر من امرأة . كانت روح الشباب ، والأمل ، والطموح ، والقوة على الحلم ، والجرأة . كانت كل ذلك الذى فقدته أنا . كانت الحب ، وجمـال الحب . فأحببتها .

أحببتها بكل ما فى حب الشباب الأول من عنف . . وكان الشباب قد مات . أواه . . . أعترف أنها كانت حماقة فظيعة . قلت لنفسى أننى عجوز أحمق . وتعذبت مع الملعونين فى الأرض . عشت فى الجحيم محروما من نعمة الموت . وأحببتها أكثر . . وأكثر **(تهوى رأسه فى يديه ، ويهتز بدنه كله فى أنين عميق)**

لويز : **(وقد غلبته الرحمة فيقول بصوت مرتعد)** ايها الصديق القديم ، فليشملك الله برحمته . **(وتقطع عليه الحديث بياتريز داخلة مسرعة من اليمين)**

بياتريز : **(فى غضب)** الأسقف مننديز يقول انه لا يستطيع أن يفعل شيئا ، وانه يجب عليك أن تسلم «نانو» . **(وتسمع من بعيد ضوضاء جمهرة من الرعاع تتقدم . بياتريز فزعة)** هل تسمع ؟ دون چوان . . ستنقذه أليس كذلك ؟

چوان : **(يرفع بصره محلقا ، ويقول فى صوت يختلط فيه الغضب بتوقع الخطر)** لابد أن أنقذه . **(يصغى الى الضوضاء المتزايدة . وعند ذاك يتصلب بدنه كه فى اصرار وتحد . ويرتد فى لحظة واحدة قائدا من جديد)** أيتها الطغمة من الجبناء ! **(يقفز الى المدخل فى اليسار ، ويصرخ فى جندى الحراسة)** أحضر نانو . **(يعود الى حيث وقف لويز وبياتريز ، ويدير بصره فى الفناء كأنما يحدد موقعه)** سأواجههم هنا . اذهب بعيداً ببياتريز يا لويز .

بياتريز : أود البقاء معك .

منديز : **(يدخل من اليمين)** چوان . **(يرى سيفه مسلولا ــ متوقعا الخطر)** ماذا ؟ هل تتحداهم ؟ اذن فأنت هالك لا محالة . أنصحك أن ترضخ لهم . سلم « نانو » للعدالة .

(فى أثناء كلامه يدخل الجنود حاملين « نانو » . وهو الآن أعرج متعب)

چوان : **(فى احتقار هائج)** مرحى أيها الأسقف الأعظم ؟ اسلمه .. هه ؟

منديز : چوان .. أنت مجرد من التقوى **(فى غضب)** هذا كفر .. أن تقرن هذا الكلب الهندى .. أنت تهزأ بمخلصنا المقدس . ملعون أنت . وأنا أنفض يدى منك .. وسينفذ قضاء الرب . **(يستدير ويعود راجعا الى الدار من الخلف)**

لويز : **(عندما ترتفع صيحة من الجمهرة)** چوان . اهرب . ما يزال هناك وقت .

چوان : أهرب من أبناء آوى. هل مات احساسى بالشرف ؟

لويز : **(اذ يسمع من الخارج ضجة عنيفة)** هم الآن على الأبواب الخارجية . تعالى يا بياتريز . .أستحلفك بالله . **(تناضل . ولكنه يفلح فى الابتعاد بها حتى المدخل فى اليمين . وتسمع آخر ضجة تحطيم عندما تنهار البوابة الخارجية . وبعد لحظة تتدفق طليعة الغوغاء ــ وكلهم من الرعاع . بعضهم يلوح فوق الرءوس بمشاعل . وجميعهم مسلحون بالفئوس والمدى ومختلف ألوان الأسلحة الغليظة التى التقطوها أو سرقوها)**

جوان : **(يزأر آمرا)** الى الوراء . **(يترددون لحظة . ثم يرون « نانو » فيندفعون اليه فى صرخات مجنونة دائرين حول النافورة . يقفز جـوان لملاقاتهم ، ويضرب ، ويطيح بسيفه ، فيقتل أو يجرح أربعة من المتقدمين يسـقطون على الأرض . يتراجع البـاقون خائفين مرتاعين . فى هذه اللحظة تتدفق بقيـة الغوغاء من المؤخرة ، متزاحمين متدافعين ، وهم يمثلون جمهرة متباينـة تضم نبـلاء فى ملابس فاخرة ، وجنـودا وبحارة ورعاعا من الأشـقياء المجرمين فى أسـمال زاهية الألوان . وبينهم عدد من الرهبان الفرنسسكان يحثـونهم على التقـدم ، وقلة من الدومينيكيـين يناشدونهم ضبط النفس)**

الجمهرة : هذا دون جوان . الحاكم . الى الوراء . الى النـار بالكلب الهندى . أمسكوه . تنح جانبا يادون جوان . أيها الهرطيق . انه مسحور . لقد رفض هذا الكلب التعميد المسيحى . الى التعذيب .

جوان : **(فى حزم)** سأقتل الرجل الذى يمس هذا الهندى . **(يسير أمامهم جيئة وذهابا وهو على استعداد للطعن بسيفه ناظرا من عين الى عين . متفحصـا)** ايهـا الأوغاد . أين شـجاعتكم الآن ؟ أظهروا شجاعتكم اذن . **(ساخرا)** هيا . . من ذا يريد أن يموت ؟

أحد النبلاء : نحن نطالب بالعدالة **(صرخات تأييد من الجمهرة . ويتدافعون مقتربين . جوان يرفع سيفه الى مستوى صدر أقربهم اليه ، فيقفز هذا الى الوراء وهو يطلق**

صرخة رعب. يموج الغوغاء. ويزداد قلقهم وازدحامهم. مترددين ترعبهم عينا چوان)

كويسادا : (يشق طريقه فجاة الى مقدمة الحجرة . مشيرا الى نانو فى عنف) سلمه . أنت مسحور . (الغوغاء وقد أثيرت من جديد . تسمع هتافات ((الى الحريق . التعذيب . الخ))) .

چوان : كلا . (صرخات هياج . وتموج الغوغاء متقدمة . يرفع چوان سيفه) سأقتل أول من .... (يرتدون ثانية ، سوى كويسادا . يزيحه چوان بيده جانبا فى ازدراء ــ ثم مهددا الآخرين فى عنف) أتثورون على حاكمكم المدنى ؟ اذن فأنتم خونة لأسبانيا . وأقسم بدم المسيح لأشنقن واحدا على كل شجرة . (يتراجعون أشبارا فى تلصص وقد انخفضت صرخاتهم لحظة الى مستوى الغمغمة الساخطة ((الملك سيعزلك . اشنقوا الهنود . اشنقوهم . اشنقوا نانو)) : الخ ...)

جندى : نحن لانقصد بك شرا يادون چوان. نفذ وعدك لنا. أأمر الاسطول بالابحار (صرخة تأييد من الجنود والبحارة)

كويسادا : وسلم هذا الكلب . ستعرف محكمة التفتيش انك تحمى الكفار .

چوان : أنا من جنود أسبانيا ، ولست من جنود محكمة التفتيش. أيها الجنود والبحارة . ان الابقاء على حياة هذا الهندى فى صالح أسبانيا . سيبحر الأسطول غدا ، ونحن فى حاجة الى نانو ليرشدنا فى رحلتنا .

(يرتفع ضجيج الجمهرة الحائرة فى هتافات مختلفة .
« الأسطول سيبحر غداً. مرحى ومرحى. انه يهزأ بنا للابقاء على حياته . ان وثنيا على السفينة لن يجلب الا الشؤم . ماذا يعنى بذلك ؟ أن يرشدنا ؟ كلا ، لعنة الكنيسة» ولكن الغوغاء وقد تحيروا أخذوا يتخبطون ، وچوان يواصل كلامه فى نوع من التنازل كأنه يخاطب أطفالا)

چوان : سكوتا. بما أنكم أغبياء الى هذا الحد فلابد أن أشرح لكم الأمر . ان « نانو » هذا قد ولد فى تلك البلاد .. كاتاى .. هدفنا .. هل تفهمون؟ ولقد أجلت موعد الابحار ريثما أقوم باستجوابه . نحن فى حاجة الى معلوماته . لابد أن يكون هو مرشدنا . **(وبنظرة قاسية صوب نانو كأنما ليبلغ تهديده موضعه)** واذا لم يف بوعده لى ، أسلمته لكم ، عن طيب خاطر ، لمعاقبته .

كويسادا : **(فى عنف)** أنت تقول هذا لتنقذه .

چوان : أيها الجنود والبحارة . اننى أهيب بكم أن تتدبروا الأمر . هل يستطيع هذا الراهب المجنون أن يقودكم الى الغزو والفتح ؟ عليكم أن تختاروا بينى وبينه . **(الجمهرة كلها تتجه نحوه ، وقد أخذها الحماس والنهم . ويدرك چوان هذه اللحظة النفسية فيلقى بالورقة الرابحة)** ولكن لكى أقنعكم أخيرا . استمعوا الى نانو . تكلم يا نانو . أخبرهم بما أخبرتنى به .. عن المدن الذهبية . تكلم . **(واذ تعلو صيحات المتجمعين « فليسقط الكلب . التعذيب . اسمعوا.**

اسمعوا . دعوه يتكلم . دون چوان يقول دعوه يتكلم . » الخ ... يضيف هو قائلا للهندى فى همس مخيف) اذا كنت تريد أن ترى وطنك ثانية . .

نانو : **(على نحو آلى ، فى صوت رتيب واضح ، وبوجه خال من التعبير)** أرض كبيرة . مدن عظيمة . . . جبارة . . . ذهب . . .

چوان : هل تسمعون ؟ مدن الذهب **(يغمغمون فى اهتياج)**

نانو : هناك ذهب كثير . . . البيوت فوقها ذهب .

جندى : شيبانحو . سنكتسح مدنهم .

بحار : الغنائم يا رجال .

چوان : مجد وذهب لكم جميعا . والآن اذهبوا **(هم الآن مهللون وفرحون . يهتفون « ارفعوا المرساة . هذه كاثاى . أخيرا . اننا مبحرون . سلب ونهب . ثراء . ذهب » الخ ... يصرخ چوان بصوت أعلى من ضجيجهم)** اذهبوا . تفرقوا . غدا نبحر . **(يهتف أحدهم « عاش دون چوان » فتتلقفها منه الغوغاء . ويبدأ دون چوان يتراخى تحت ضغط المجهود الذى بذله ــ بصوت متعب)** اذهبوا . اذهبوا . . .

الغوغاء : **(يقودهم بحار ينشدون نوعا من النغم فى كورس هائل ، وهم يرقصون بوحشية وعنف ، ملوحين بمشاعلهم ، متزاحمين على الخروج ، فى المؤخرة)**

مدن الذهب ،
فى كاثاى البعيدة ،
وملكها ، خان الأكبر ، عجوز هرم ،

وثروته ليس لها مثيل ،
يفوز بها الشجعان ،
الذين يبحرون ،
ذهبه للشجعان الذين يبحرون .

بياتريز : **(اذ يختفى آخر الغوغاء ــ تندفع صاعدة الى چوان فى اعجاب عظيم)** لقد أنقذته . ان ما يقولونه عنك صدق حقا ــ ليون أسد ... اسم على مسمى .

چوان : **(فى مرارة)** أسد . كلا . بل سياسى ماكر . لوكنت حقا كما كنت فى الماضى لما توسلت الى هؤلاء الكلاب ولا ساومتهم .. بل **(يرفع سيفه مهددا ، ثم يترك ذراعه تسقط عاجزة . وينفلت السيف من بين أصابعه ويسقط على الأرض)**

بياتريز : **(تركع بسرعة وتقدم اليه مقبض السيف)** أرد اليك سيفك ليجلب لك الحظ الحسن . والآن يجب أن تجد المدن الذهبية .

چوان : **(يأخذ السيف وفى لهجة تمن وحنين)** لست أحفل الا بشىء واحد يا بياتريز ، مدينة الشباب الذهبية ، وأنت فيها ملكة . **(تتطلع فى وجهه فى ابتسام وقد لفها الغموض ، والستار تنزل)**

ستار

الفصل الثالث

المناظر ٧ و ٨ و ٩ و ١٠ و ١١

المنظر السابع

(بعد أربعــة أشهر . جانب من شاطىء فلوريدا . ليلة بهيجة فى ضوء القمر . تمتــد الغــابة من اليمين فى المقــدمة الى اليسار فى المؤخرة أشــبه بحائط من الظــلام الداكن . وتلتمع الرمال التماعا أبيض شاحبا فى ضوء القمر . ويسمع الصوت الرتيب الذى يحدثه مد الأمواج وجزرها فى هــذه الليلة الهــادئة الخالية من الريح .

عندما ترفع الستار نتبين هنديا واقفا فى ضوء القمر علىحافة ظلال الغابة ، وهومتقدم فى السن ، ولكنه ما يزال مشــدود القامة ، محتفظا بسمة المحاربين ، ويبدو من هيئته أنه زعيم . وبدنه ، الذى لا يستره غير جلدغزال حولالوسط ، مصبوغ بالألوان بعناية،وكذلك وجهه . وفىشعره خصلة منالريش ، ويحمل حول خصره فاسا هندية وسكينا حجرية . يبــدو ساكنا لا يتحرك كانه تمثــال ، وقد

اعتمد بيده على قوسه كأنها عصـــا . ولكنه يمد بصره فى اهتمام وتفحص نحــو شىء فى المحيط أمامه . وفى النهاية ، يطلق صوتا يدل على الدهشة ، ويومىء الى الغابة من خلفــه بحركة استدعاء ، فيخرج من العتمة الطبيب الساحر ، وهو رجل عجوز هرم الى درجــة بالغة ، ضامر متقلص ، يزين جسده برسوم عديدة ملونة ، وحلى من العظام والأصداف. يتباحث الاثنـــان معا فى أصـــوات خفيفـــة وايماءات كثيرة ، ويبدو من الواضح أن هناك رجلا يسبح نحوهم قادما فى شىء غـــريب فى عرض البحر . يتسلل هنود آخرون من الغابة، ويتجمعون فى الظـــلام خلفهما ، ويشـــيرون ويومئون الى البحر . واذ يصـــدر الرئيس أمرا ، يرفعون أقواسهم ، ويضعون السهام ، ويتجمعون فى كمين فى الظلام . يحذو الزعيم حذوهم، ويقف منتظرا متهيئا لما قد يحدث. يتقدم نانو على الشاطىء قادما من المقدمة فى اليسار . وتلمع حبات الماء على بدنه العارى. ويرى الزعيم ، فيقف رافعا يده اليمنى فوق رأسه . يرسل الزعيم اشارة فيندفع الهنود الآخرون من الكمين ويحيطون بنانو)

الزعيم : قيدوه .

نانو : **(فى هدوء)** أيكون الأخ عدوا ؟ **(يتنبهون جميعا عند ما يسمعونه يتكلم لغتهم. يمضى نانو فى الحديث)** هذه بلاد آبائى . انا « نانو » أحد أبناء « بووانو » الذى كان زعيما . **(يحملقون فيه جميعا . يشير الزعيم الى الساحر ، فيتقدم ، ويتفحص وجه نانو بامعان)**

الساحر : كلماته صادقة. والا فان روحا شريرة تتقمص بدنه. **(يهز فى وجهه رقية)** هل أنت من بلاد الموتى ؟

نانو : أنا من أرض الأحياء . انهم لم يقيدونى . حسبوا أننى أخاف البحر . أنا قادم لتحذيركم . سبحت فى الزوارق الكبيرة . انها سفن الأسبان الحربية .

الزعيم : **(وقد غمض عليه الأمر)** من هم الأسبان ؟ ان زوارقهم المجنحة تشبه قوارب الآلهة .

نانو : ليس هؤلاء آلهة . انهم بشر ، يموتون اذا جرحوا . وجوههم بيضاء ، ولكنهم أشرار . يرتدون قمصانا لا يمكن للسهام اختراقها . معهم عصى غريبة تبصق نارا وتقتل . شياطينهم تجعلهم أقوياء ، ولكنهم ليسوا محاربين بحق . انهم لصوص ، مغتصبون للنساء .

الزعيم : أليس لهم اله ؟

نانو : **(باحتقار)** الههم شىء من الأرض . هذا **(يلمس حلية ذهبية من حلى الساحر)**

الساحر : **(وقد غمض عليه الأمر)** الذهب ؟ ان الذهب

مقدس عند الشمس . ولكنه لا يمكن أن يكون هو نفسه الها .

نانو : (**فى ازدراء**) انهم لا يرون الا الأشياء وحدها ، لا ما وراء الأشياء من روح . قلوبهم موحلة كبركة خاضت فيها الغزلان . حكماؤهم يتحدثون عن اله جاءهم منذ زمن بعيد فى صورة بشر ، علمهم أن يحتقروا الأشياء ، علمهم أن يبحثوا عن الروح فى الأشياء ، فانتقموا منه وقتلوه . عذبوه وقدموه قربانا لشيطانهم الذهب. عقدوا صليبا من قطعتين كبيرتين من الخشب ، وغرزوا عصيا صغيرة فى يديه وقدميه ، وسمروه ... هكذا (**عندما يمثل لهم ذلك ، تسرى بينهم همهمة ارتياع واستياء**)

الساحر : يعذبون الها ؟ كيف تجاسروا ؟

نانو : شياطينهم كانت تحميهم . والآن يحملون ، أينما ذهبوا ، صورة للاله وهو يموت . يفعلون ذلك لاثارة الخوف . يأمرونك بالخضوع لهم ، بينما ترى انه حتى الاله نفسه قد عذب هو أيضا ، عندما كافح شرورهم (**فى اعتزاز**) ولكننى رفضت .

الطبيب : (**متشككا**) اذا كنت قد تحديتهم ورفضت الاذعان، فكيف بقيت حيا ؟

نانو : أنا أكثر منهم دهاء . ان لهم زعيما عجوزا عليه لعنة بالجنون . حدثته عن ينبوع الحياة ، وقلت له اننى سأجده له .

الساحر : الآلهة وحدها هى التى يمكنها أن تكشف عنه . لماذا كذبت هذه الكذبة ؟

نانو : (بوحشية) الانتقام . لقد وضعت خطة . هل يوجد ينبوع قريب هنا ؟

الزعيم : (حائرا) نعم فى الغابة .

نانو : (فى رضى) حسن . أصغ الى . هذا الزعيم المجنون أقواهم جميعا . وبدونه يصبحون جميعا جبناء . سأقوده غدا فى الليل الى الينبوع . ويجب أن تظلوا أنتم مختبئين . وسنقتله هناك . هل هذا واضح ؟

الزعيم : نعم .

نانو : سأسبح الآن عائدا . لقد قررت لأنبئكم بخطتى واحذركم . سيخربون أرضكم كما خربوا أرضى . لقد قتلوا زوجاتى وأطفالى . حرقوا المحاربين وعذبوهم وقيدوهم بالسلاسل من أعناقهم . انهم يضربونهم بالسياط ليحرثوا الحقول . لقد كان على رأسهم ذلك الزعيم العجوز . ان فى قلبى نارا ، ولن يهدأ قلبى حتى يموت ذلك الرجل .

الزعيم : لقد بدأت أشعر بحقدك .

نانو : اذن فلا تنس أن تختبىء قرب الينبوع .

الزعيم : لن أنسى .

نانو : هذا حسن (**يستدير ويسير الى البحر ويقفون يراقبونه فى صمت**)

الساحر : (**فى اضطراب ، مفكرا**) الشياطين وحدها تستطيع أن تبنى زوارق كبيرة تطير بأجنحة . انهم يا أشقائى ، أرواح شريرة . لقد حاربهم نانو وقهروه . هل نستطيع أن نعتمد على خطته .

الزعيم : بماذا تشير علينا ؟

الساحر : لقد سمعت صوت الروح العليا تتحدث فى الليل . فلنحاول أولا استرضاء شياطينهم .

الزعيم : أنا لا أعرف كيف أحارب الشياطين. هذا واجبك. فلنتشاور فى الأمر . **(يشير فيختفى أتباعه فى الغابة فى صمت . ويتبعهم هو والطبيب الساحر ، اذ تنزل الستار)**

المنظر الثامن

(نفس المنظر ، ظهر اليوم التالى ، والشمس الملتهبة تسطع بضوئها على الشاطئ . الاعياء والحر اللافح يسبغان جوا ثقيلا ، وتبدو الأرض كأنها قد ماتت وتحنطت فى سائل منصهر لا لون له ، والغابة كأنها حائط أخضر ، ولصوت البحر طابع الارهاق البالغ .

يقام على الشاطىء مذبح مسيحى على عجل : جذعان مستديران يسندان لوحا حجريا . وعلى قمة اللوح وضع وعاء صنع من لحاء الشجر على شكل صحن . جماعة من الهنود يقومون بانجاز الترتيبات النهائية لاقامة هذا الهيكل تحت ارشاد الطبيب الساحر ، دون أن ينقطعوا عن القاء نظرات توقع مرتاعة صوب البحر . الساحر يعقد غصنين معا على هيئة صليب . كل الهنود متزينون بالريش والألوان كما يفعلون فى المناسبات البالغة الأهمية)

الهنود : **(يعملون وعيونهم على البحر ـ خائفين)** الزوارق الصغيرة تغادر الزوارق الكبيرة المجنحة . انهم قادمون . الشمس تلمع على قمصانهم التى لا يمكن أن تخترقها السهام . وعصيهم النارية تتلألأ فى الشمس . وجوههم شاحبة . أنهم يراقبوننا .

الساحر : **(منجزا عمله)** احتفظوا بشجاعتكم . **(مناولا الصليب الى اثنين من الهنود)** خذا ... هذه تعويذتهم . أقيماها هناك **(يحفران حفرة فى الرمال أمام المذبح ويقيمان فيها الصليب ، ولكنهم يخطئون فيضعون الصليب مقلوبا. الساحر يغمغم راضيا)** سيظنون أننا نعبد نفس الشيطان . سيتركوننا فى سلام .

الهندى : **(عيناه على البحر)** الزورق الأخير انفصل عن السفن الكبيرة **(يطلق صرخة رعب يرددها الآخرون)** ياى . نار ودخان . **(ينحنون فى خوف . وتدوى فوق مياه البحر طلقة تحية من المدفع . ينكمشون جميعا فى رعب وقد أحنوا رءوسهم)**

الهندى : **(فى رعب)** الرعد يحارب فى صفهم .

هندى آخر : انهم آلهة بيض .

الساحر : **(وقد خاف هو نفسه ولكنه يجمع شمل أتباعه فى قسوة)** ان لكم قلوب الجبناء . هيا ، بسرعة . أين الذهب ؟ **(ياتى اليه هندى بآنية مصنوعة من الطين المجفف . يفرغها فى الوعاء الموضوع على قمة المذبح . الآنية مليئة بالسبائك الذهبية من مختلف**

الأحجام فتصبح كومة وهاجة فى ضوء الشمس)

الهنود : انهم قادمون ! انهم قادمون !

الساحر : تظاهروا بعبادة شيطانهم الذهبى ، ولكن صلوا لأمنا المعظمة ، الشمس . انها تستطيع أن تقهر كل الشياطين . صلوا لها . **(يبدأ هندى فى القرع قرعا منغوما على طبلة صغيرة ، ويرفع الرجل صوته المرتعش مع الأنغام الأولى . فيشترك الآخرون معه على الفور كأنهم منومون)** أمنا العظيمة ، الجبارة ، حاكمة الأرض ، صانعة الأيام ، اسمحى لانشادنا أن يصعد اليك ، وأن يدخل قلبك أيتها الجبارة ، اسمعينا ولا تخفى عنا وجهك فى السحب ، وباركينا عند الفجر ، وفى نهاية النهار . **(يقفون فى دائرة ويرقصون حول المذبح وعيونهم مرفوعة الى السماء . يخفى انشادهم أصوات نزول الأسبانيين الى البر . ثم يظهر الأسبانيون من اليسار ، فى المقدمة . يدخل چوان أولا . وجهه قاس مربد ، وعيناه ثابتتان فى محجريهما . وفى صحبته لويز ، وتتبعهما فصيلة من الجنود يحرسون نانو مقيدا بالسلاسل . ثم يأتى أربعة من الرهبان الفرنسيسكان يقودهم كويسادا مسلحا بسيف ومسدس فوق المسح الذى يرتديه . والآخرون يحملون صلبانا . ويتبع هؤلاء جماعة من النبلاء فى ثياب فاخرة ، ثم صفوف من الجنود . ويحملق الجميع فى هذه الطقوس الهندية باحتقار وازدراء)**

جوان : (عصبيا) دعهم يكفوا عن ضجيجهم الملعون يا لويز . دع نانو يتحدث اليهم .

لويز : (متقدما نحو الهنود – فى صوت مرتفع ولكن ودود ، رافعا يده اليمنى) سلاما ايها الاخوة . (يتوقف الهنود متحجرين يحملقون فى رعب الى الرجال البيض . الساحر يرفع يده اليمنى ويتقدم خطوة نحو لويز . يلمح كويسادا الصليب فيزمجر متعجبا ، ثم يتقدم ليتأكد مما رأى ، وعندما يرى أنه مقلوب حقا ، يربد وجهه بالحنق الشديد)

كويسادا : صليب مقلوب : صلاة شيطانية (يخرج مسدسه) الكلب الكافر . (يطلق الرصاص فيسقط الساحر . الهنود الذين تراجعوا فى رعب نحو الغابة منذ أول حركة من كويسادا ، يولون الأدبار فزعين)

لويز : (فى هلع) كف يا كويسادا . (كويسادا ينزع الصليب ، واذ يقوم بتثبيته فى وضعه الطبيعى ، ينزع الهندى سكينه بآخر ما بقى له من قوة قبل الموت ، ويتحامل ناهضا على قدميه ، ويطعن كويسادا فى ظهره ، ويسقط الاثنان معا ، ويموت الهندى ، بينما كويسادا تصيبه رعدة ثم يسكن . يطلق الأسبانيون صرخة حنق . ويندفعون الى الأمام صوب الغابة كأنما ليطاردوا الهنود ، ولكن جوان يصرخ فيهم آمرا)

جوان : قفوا أيها الأغبياء . (يقفون فى تعقل واستياء معا . يستدير جوان الى لويز الذى ركع الى جوار كويسادا) هل مات ؟

لويز : نعم . **(يرسم على نفسه علامة الصليب)** فلترقد روحه فى سلام **(ويردد الجميع قوله وهم يرسمون علامة الصليب)**

چوان : العين بالعين والسن بالسن **(ساخرا)** وهى الآن عينه هو وسنه هو . **(مرتعدا)** خذوه بعيدا . هذا تعميد دموى لكانای **(مستديرا الى نانو ، اذ يحمل الجنود الجثتين جانبا)** اهذه هى البلاد يا نانو ؟

نانو : **(وعيناه تنقدان كراهية)** نعم .

چوان : لقد قلت انها أرض العجائب ، أرض الأزهار ، ولكننى لا أرى أزهارا .

نانو : **(فى لهجة خبيثة)** فى الغابة . تنمو الأزهار الى جوار الينبوع ..

چوان : **(فى عنف ـ وهو ينظر حوله متوجسا)** أسكت .

أحد النبلاء : **(من الجماعة التى تدور فى المكان نافدة الصبر)** يا صاحب السعادة ، أن أعلام قسطلة وأراجون تنتظر اوامرك .

چوان : **(يقوم بحركة تدل على الاضطراب ، كأنما يزيح عن ذهنه نسيجا عنكبوتيا)** نعم .. نعم .. لابد أن اعلن الامتلاك .. هاتوا الأعلام . **(يركع على ركبة واحدة ، ويفعل الجميع مثله)** باسم السيد المسيح ، وباسم صاحب الجلالة الجالس على عرش قسطلة وأراجون ، اضم الآن الى ممتلكاته هذه البلاد وكل نواحيها . وأسميها فلوريدا . **(ينحنى ويقبل الرمال . تثبت سوارى الأعلام فى الرمال ، وتتدلى**

الأعلام فوقهـا دون حركة . وعندما يقوم چوان بهذا المجهود يبدو كأنه تبلد)

أحد النبلاء : **(فى همس ساخر)** اسم جميل .

نبيل آخر : لقد اصبح غبيا . أتراه سيذهب باحثا عن ينبوعه هنا أيضا ؟ لابد أنه سيموت غرقا من كثرة ما شرب من ماء طيلة الشهور الأربعة الماضية . **(يتغـامز الجميع على هذا)**

نبيل آخر : **(نافد الصـبر)** ألن ينهض من على ركبتيه أبدا فيتركنا ننهض ؟

لويز : **(وقد أحس بما يدور خلفهما ــ يلتفت الى چوان الذى يبدو انه يصلى وقد أحنى رأسه ــ يشده من كمه)** چوان . هيا .

چوان : **(فى شرود)** كنت أصلى .. ولكن لأى اله ؟ لست أدرى **(ينهض فى ضعف ، وعنـد ذلك ينهضون جميعا)**

أحد النبلاء : **(مشيرا فى انفعال)** أنظر . هناك فى تلك الآنية فوق الأحجار . أليس ذلك ذهبا ؟ **(يندفعون جميعا الى المذبح . يمسك النبيل بقطعة منها ويتحشرج صوته بما فيه من جشع وظفر)** ذهب . **(يمدون جميعـا أيديهم الى الآنية يمسـكون بها ، فتنقلب محتوياتها على الرمال ، فيسقطون وراءها يمسكون بها صارخين)** ذهب ! لابد أن هذه البلاد غنية . لابد أن يكون فيها مزيد من الذهب . المدن الذهبية قريبة . كاثاى . اخيرا . **(ينسى الجنـود النظـام ، ويخرجـون من الصفوف ، وينحـولون الى جمهرة متدفقـة حول**

القائد ، دون نظام . وحتى الرهبان أنفسهم يبرزون الى الأمام مستطلعين)

لويز : **(فى حمية)** چوان . أنظر . هذا مشين .

چوان : **(يرتد الى نفسه فجأة ــ آمرا فى لهجة عنيفة)** عودوا الى الصفوف . انكم تضربون مثلا رائعا يا نبلاء أسبانيا . **(تطغى قوة شخصيته ، فيتسللون جميعا عائدين الى النظام وهم يغمغمون فى تمرد . ويبدو چوان وقد تملكه فجأة فرح وحشى)** كاثاى . لقد عثرنا على كاثاى . هذه هى البلاد .. البلاد المزهرة . ان أحلامنا تكمن هنا . فلنرتل جميعا صلاة الشكر للرب ... هيا .

(يطبق الصمت الثقيل لحظة تبدو فيها الحرارة ، والشمس المتوهجة على الشاطىء ، وخضرة الغابة ، بل الطبيعة كلها ، كأنها تسلط على هؤلاء الرجال أثرا سحريا غامضا ، أعترافا متهالكا مفاجئا بهزيمتهم . ثم يرفع الرهبان الفرنسيسكان أصواتهم بصلاة الشكر على نحو آلى لا روح فيه . وبالتدريج تنضم اليهم أصوات أخرى لا حياة فيها ، بينما تنزل الستار ..)

ســـتار

المنظر التاسع

(حوالى منتصف الليل فى الغابة . فى المقدمة جذوع أشجار تلتف حـولها كروم مزهرة . طحالب أسبانية متسلقة متدلية الى الأرض من الأغصان . من خلال هذا التشابك ، ساحة دائرية نبتت فيها الحشائش وأغرقها ضـوء القمر . يسمع همس خرير هادىء فى ينبوع منبثق بفقاقيعه من الأرض . وسط هـذه الساحة هنود راقدون فى كمين بين الأشجار ، دون حركة ، وقد ثبتوا أنظارهم على الساحة .

ويقطع السكون نداء طير فينتبه الهنود فى يقظة . يصفر أحدهم مجيبا ، فيزحف هندى ، من اليسار ، مسرعا . ويأتى الزعيم من مكانه فى الكمين ليقابله)

الزعيم : أهو آت ؟

الهندى : دخل الغابة .

الزعيم : سـأعطى نانو الاشـارة حينما نستعد . اذهب . اختبىء (يأخذ الهندى مكانا بين الآخرين . يضع

الزعيم سهما فى قوسه ، ويقعى فى الظلام . فترة صمت . ثم صوت شخص يشق طريقه فى الغـابة عند المؤخرة . يظهر نانو هناك يتبعه چوان)

چوان : لماذا توقفت ؟

نانو : هذا هو المكان .

چوان : **(ناظرا حوله فى خيبة أمل)** هذا ؟

نانو : هذا هو الينبوع .

چوان : **(يخطو الى الأمام لينظر اليه ــ ثم فى غضب متزايد)** انه يبدو ينبوعا عاديا كأى ينبوع آخر . حذار ايها الكلب ! لقد اريتنى فى هذه الشهور الماضية ينـابيع عـدة .

نانو : **(بسرعة)** كانت الرحلة طويلة . وكانت هناك جزر كثيرة . واجبرتنى انت ان أقودك الى ينبوع فى كل منها . ولقد أخبرتك أن ينبوع الحياة هنا .

چوان : كنت اخشى ان تقودك رغبتك فى الانتقام الى الكذب . **(ويروح فى شرود حزين ــ بمرارة)** لقد شربت من كل ينبوع . وكنت اغمض عينى ، وأشعر بالحيـاة تولد من جديد . يالى من أحمق ! لقد كانت مرآة الينبوع تطلع على فى كل مرة بنفس الوجـه العطن الكريه . **(يئن مزمجرا ــ ثم بضحكة خشنة)** روضة مقدسة ، هكذا تقول الأسطورة . كانت بعض هذه الينابيع تنبثق من مياه رملية . والعذارى الحسان ؟ لم يكن لهن وجود . بل وجدت قرب واحدة منها عجوزا شمطاء تملأ وعاءها ، وشربت وتجشـأت فى وجهى **(بلهجـة آمرة جافة)** نانو . آمرك أن تقول

لى ان كنت كذبت على . (**فى شرود**) لابد أن أصل الى اليقين ، ايمانا كان أم يأسا .

نانو : هذا هو الينبوع .

چوان : (**ناظرا حوله**) ولكن أين الأشجار بثمارها الذهبية، والعذارى ، والنافورة ؟ (**يحملق حائرا — متمسكا بالأمل**) ومع ذلك فان لهذه البقعة جمالا فريدا . أنا أحس بسحر المكان . ولكن لماذا أرتعد ؟ (**اشارة بالصفير الخفيض تأتى من الزعيم المختبىء فى طرف الساحة . يهب چوان**) شش . ما هذا ؟

نانو : طائر . (**باصرار**) انه ينبوع سحرى . اشرب .

چوان : (**منحنيا على الينبوع**) مرآة من ضوء القمر . عينا جثة ميتة تحملق فى عينى ... (**يركع الى جوار الينبوع كأنما أصابه سحره**) لا أجرؤ على الشرب . لن أستطيع أن أصلى ؟ بياتريز ! آه بياتريز ! لو سمعت صوتك مرة أخرى ! لو رأيت وجهك ! ومع ذلك فاننى أراك فى كل مكان . روحك تلهم كل الأشياء أينما يكن الجمال . انا أسمع نداءك فى أغنية الموج ، الريح أنفاسك ، وبذراعيك تمتد الأغصان ، والفجر والغروب يعنيان النفس بشفتيك . انت فى كل مكان ولست فى أى مكان ، أنت جزء من الحياة كلها ، الا حياتى . (**يتوقف ويلتفت فى تشكك وينظر بسرعة الى نانو القلق — فى مرارة**) منظرى جدير بالضحك والسخرية ... هه ؟ عجوز قبيح أحمق .

نانو : (**فى لهجة آمرة عنيفة**) اشرب .

چوان : (فى ارتباك وعجلة ـ دافعا نفسه الى الحركة)
الامتحان ! يا روح الشباب الأبدى ، أصلى لك .
بياتريز ! (ينحنى ويشرب . واذ يفعل ذلك ينفلت
عنه نانو بسرعة الى الغابة ، فى المقدمة) .

نانو : (فى عجلة) اقتلوه عندما يقف . (يمكن رؤيةالهنود
يرفعون أقواسهم ويسددون) .

چوان : (وقد شرب ، يظل راكعا عند الينبوع ـ ويرتعد
صوته فىفرح متردد) الحياةالجديدة تنبض فى. أهو
الشباب ؟ هل أنا فىحلم ؟ اذن فلأبق فيه لاأستيقظ
منه حتى آخر الزمن . (فى صوت أجش) جبان !
كم من مرة وقفت تواجه الموت . هل أنت الآنخائف
من الحياة ؟ افتح عينيك ، افتحهما وانظر (يفتح
عينيه ويحملق فى الينبوع . فتنشق صدره زمجرة
هائلة) رباه ! (ويتحول حزنه على الفور الى غضب
جنونى) ايها الكلب الخائن ، لقد خدعتنى . (ويقفز
ناهضا على قدميه مستلا سيفه ، وتسمع أصوات
شد أقواس كثيرة ، وأزيز وابل منالسهام . يسقط
چوان متشبثا بالحشائش ، وتخمد أنفاسه .
يندفق الهنود خارجين من الساحة ، ولكنهم يبقون
على مبعدة من چوان فى حذر)

نانو : (وهو أشجع منهم ، ينحنى على الجثة) لم يكن
يرتدى قميصا لامعا . انه ميت (يرقص رقصة
عنيفة من رقصات الانتصار بين الهنود ، الى

جانب الجثة ــ وكمـا بدأها فجأة يتوقف فجـأة)

هيا بسرعة ، الى معسكرهم . لقد جعلهم الروح الأعظم بلا حول ولا قوة . كونوا شجعان واقتلوا .

(يجرى بسرعة داخل الغابة ، تتبعه الجمـاعة كلها شاهرين اسلحتهم . فترة ، ثم صرخات الهنـود الوحشـية وهم يهجمـون على المعسـكر النائم ، وصرخات الرعب من الأسبانيين ، وأنات المحتضرين، وبضع طلقات فاشلة)

ســتار

المنظر العاشر

(نفس الساحة فى الغابة بعد بضع ساعات . لا تظهر الآن الأشـجار ، بل تبدو السـاحة وحدها تشغل المنظر كله . الينبوع فى الوسط . الجدار المكون من أشجار الغابة يؤلف مؤخرة شبه دائرية تقريبا . ويرتفع الستار عن ظلام حالك وسكون لا يشوبه الا خرير الينبوع . ثم يسمع صوت شخص يناضل لينهض من الأرض ثم يسقط وهو يزوم متـألما . يأتى صوت چوان من الظلام)

چوان : **(كأنما قد اسـتعاد وعيه ــ فى زمجرة غضب وألم اذ يسترجع ذاكرته)** يا لى من أحمق ! لماذا فتحت عينى ونظرت ؟ ياليتنى كنت مت فى حلمى ! **(فترة ــ فى ضعف)** كأن النوم يطن فى اذنى . أم هو الموت ؟ الموت الرحيم . **(يتململ ويصبح صوته فجأة ثاقبا)** كلا . كلا . لماذا عشت ؟ لكى أموت وحيدا كوحش فى البرية ؟ **(بيأس مرير ساخر)** يسـوع ... أهذه

عدالتك ؟ ألا يعرف التسامح تخلّص البشر ؟ نعم ، لقد صليت من أجل معجزة ليست من معجزاتك ، فلأكن ملعونا اذن . ولكن (**بعاطفة متأججة**) اجعلنى أومن بملكتك . أرضى بمعجزتك .. اشارة .. كلمة .. لمحة أرى فيها ما أنا ، حتى أكون قد عشت ومت . تجربة .

(**يضحك فى حركة تجاسر ساخرة**) لا شىء . (**لكن، حتى وهو يتكلم ، يبدأ خيط من الضوء الغريب يتدفق على نقطة من طرف الساحة فى اليمين ، فتأخذه الدهشة رغما عنه**) هذا الضوء ؟ أن القمر محتجب . (**ومن خلال الضوء المتزايد تتضح معالم جسم ، جسم امرأة طويلة ، كقطعة من تمثال تاريخى متدثر فى غلالات طويلة فى لون أزرق كأنه أسود تقريبا ، والوجه قناع شاحب لاتبين من ملامحه الا العينان اللتان تحملقان الى الأمام فى نفاذ حجرى ثابت يخترق الأشياء فيراها وما وراءها . ذراعاها جامدتان الى جانبيها ، وكفاها مبسوطتان الى الخارج . يحملق جوان فيها ، يصطرع فى نفسه التحدى مع الروع**) ماذا أنت ؟ (**يغتصب ابتسامة سخرية**) ملاك ! استجابة لصلاتى ! (**لا يستطيع أن يتمالك رجفة تصيبه ــ يحاول أن يهدىء نفسه . يحملق فى الجسم ــ بعد فترة ــ بجسارة**) أم أنت الموت ؟ لماذا اذن كنت أضحك كثيرا وأنا أمامك وجها لوجه ؟ (**مستثيرا**) ارفع قناعك أيها الجبان . (**ساخرا دون اطمئنان**) أيتها السيدة الحسناء ،

أنت غامضة . ينبغى على المرء أن يطوقك بذراعين جريئتين ، وأن يرفع عنك تنكرك . كانت هــذه تسليتى القديمة ، ان ألهو بالغرام كما لو كان مباراة فى الصيد والقنص . لو كنت ما أزال ذلك الدون چوان ! ! ولكننى كما ترين الآن عجوز ، وجريح .
(يترنح . الجسم يتجمد . چوان يسأل فى شىء من التلعثم) هل أنت ... الموت ؟ اذن أنتظر .
(فى ابتهال عميق) بياتريز . دعينى أسمع صوتك مرة أخرى رحمــة بى فى موقف الوداع . **(يأتى صوت بياتريز يغنى من الظلام كما لو كان استجابة لابتهال چوان)**

الصوت : الحب زهرة ،
دائما مزدهرة .
الحيــاة ينبوع ،
دائما يتدفق ،
الى العلا ، ليمسك بضوء الشمس الذهبى .
ويبلغ السماء اللازوردية .
يهوى ويسقط ،
ودائما يعود ،
ليقبل الأرض كى يزدهر الزهور .

چوان : **(فى جذل)** الشــباب ! **(وفى أثنــاء الغناء يتدفق الضوء الغريب ببطء حول الينبوع الذى يتحول الى نافورة هائلة ، تبدو مياهها التى يطوقها قوس قزح وكأنهــا تضم السماء والأرض ، فى غلالة من**

النور المتألق تحجب الغابة فى المؤخرة . ويصبح
چوان والجسم على حافة هذا المنظر فى الخارج .
يبرز جسم بياتريز فى الداخل كأنه صاعد من
الينبوع . وترقص بياتريز فى نشوة ـ تمثيلا لروح
الينبوع . يهتف چوان بصوت يختلج سعادة
وفرحا) الينبوع ! فلأشرب . (يحاول أن يجر
نفسه اليه ولكنه لا يستطيع ـ فى قلق) الابد أن
أموت ..؟ (يشير اشارة تحد غاضبة الى الجسم
وهو يناضل للنهوض) لا . أنا أتحداك . (يشعر
بالارهاق فيهوى ثانية وهويبكى متضرعا) بياتريز !
(يبدو أنها لا تراه ولا تسمعه . چوان فى يأسه يكاد
ينتحب) هى لن ترى . ولن تسمع . أيها الينبوع ،
أنت قاس كقلب الشباب ، ماذا لديك من رحمة
للعجوز وللجريح ؟ (يتهاوى وقد غلبه الضعف .
تتلاشى بياتريز من الينبوع . ويظهر مكانها شبح
يمثل شاعرا صينيا ، وهو رجل عجوز مقدس له
سماحة وجه الحالم والعالم ، يحمل لوحة يكتب
عليها بفرشاة غارقا فى التأمل . چوان يرفع بصره
فيراه وينتبه فى دهشة) من أنت ؟ ما شأنك ؟
(متلمسا أثرا بعينه فى الذاكرة) آه أنا أعرف ...
تلك الليلة فى غرناطة ... حكاية العربى (فى
اهتياج) عن ذلك الشاعر فى الشرق ، الذى أخبر
والده بأكذوبة الينبوع . ألست أنت ذلك الذى
يسمم الحياة ؟ (يرفع الشاعر يده كأنه يستدعى
شخصا . ويظهر الى جانبه شبح المنشد العربى

الذى رأيناه فى المنظر الأول .) العربى ! **(هائجا)**
أيها الكلب الكافر . كذبتك كانت لعنة عليك .
(يظهر شبح نانو الى جانب الشاعر الصينى من الناحية الأخرى . يناضل چوان فى غضب ليبلغ سيفه) القاتل ! **(ثم تقع عيناه على جسم رابع يتجسد الى جانب العربى ، هو لويز كما كان فى المنظر الأول . يقول چوان بصرخة فرح)** لويز أيها الصديق القديم . **(اذ يبدو أن لويز لا يراه ولا يسمعه ، ينهاوى چوان فى غير حول ولا قوة)** لا ، هذا شبح هازىء آخر . **(يراقب الشاعر الصينى الذى يبدو كأنه يقرأ على الجميع ما كتب)** انظر . ان الموتى يكذبون على الأحياء . وهكذا تسير الأمور .. من الشرق الى الغرب .. حول العالم المستدير .. من العوالم القديمة الى الجديدة . ها ها ها . **(يضحك بصوت وحشى أجش . الشاعر الصينى يأخذ الهندى بيد ، والعربى باليد الأخرى ، ويمد هذان أيديهما الى لويز ، فينضم اليهما ، وتتم بهم هكذا دائرة كاملة ، ويسمع صوت بياتريز تغنى)**

الصوت : الحياة حقل ،
متزايد أبدا .
الجمال ينبوع ،
متدفق أبدا .
متساميا الى ما وراء مصدر الشمس ،
متساميا الى ما وراء السماء اللازوردية .

انه من الله ،
ولكنه يعود أبدا ،
ليمتزج بالأرض لكى تثمر الحقول .

(وبينما تغنى بياتريز تتلاشى الأشباح الأربعة كأنما ذابت فى الينبوع)

چوان : **(غارقا فى نشوة الأغنية)** غن ، غن ، أيها الشباب . **(يهم فزعا عندما تتوقف الأغنية ، ثم يقول فى غباء)** ذهبت الأشـــباح . ما هو حل هذا اللغز ؟ لست شاعرا . كنت أناضل فى ســـبيل ما يمكن لليد أن تبلغه . فمــاذا يبقى عندما يجعل الموت اليدين عاجزتين ؟ **(مخاطبا الشـــبح فى رثاء ، محــاولا أن يتهكم)** أيها الجبار ، يا من تفك قبضة الأيادى ، أما لديك من رؤيا للمتشبثين بالأرض ؟ **(يرفع الشبح يده فى حركة استدعاء ، فتبدأ الأشباح فى الظهور ، واحدا بعــد الآخر . يظهر أولا الشاعر الصينى مرتديا الآن زى كاهن بوذى ، ثم المنشد العربى فى زى شيخ مسلم ، ثم الطبيب الساحر كما كان فى المنظر الثــامن وقد تزين بكل أصباغه وحليه الرســمية ، وأخــيرا لويز كمــا هو الآن راهب دومينيكى . ويحمل كل منهم شعار دينه أمامه . ويبدون جميعا فى وضوح ، لحظة ، ثم يتلاشون كأنما ذابوا فى الينبوع . وكان چوان يحملق فيهم بعين متفحصة ــ ثم يقول فى صوت حائر)** العقائد كلها . . . تتلاشى . كلها واحدة ومتساوية . . . فى داخلهــا . **(الرهبة والتــوقير يتسللان الآن الى**

صـوته) ماذا أنت أيها الينبوع ؟ ذلك الذى تنبع منه كل الحياة ، واليه ينبغى أن تعود ، الله ! أتكون منـك كل الأحلام الا ذلك الحلم الواحد . **(يحنى رأسه فى بؤس)** لست أدرى . عد أيها الشـباب . اكشف لى هذا السر . **(وتمر لحظة يسمع فيهـا صوت بياتريز قادما من الظلام)**

الموت شباب :

يحجب شروق الشمس .

(يبدو أن چوان قد وقع فى سـنة من النشوة . شبح امرأة هندية عجوز يظهر من اليسار . تتقدم الى الأمام متعثرة الخطى ، تحمل تحت ذراعها آنية خشبية كأنما هى ذاهبة تملأها من الينبوع)

چوان : **(يتذكرها فيقول فى استبشاع)** أيتهـا الشمطاء الملعونة ، أنا أتذكرك وقد وقفت الى جوار أحـد الينابيع لتسخرى منى . أغربى عنى . **(ولـكن المرأة العجوز تمد يديهـا نحوه فى تضرع غامض . چوان يرتعش ، وبعد نضال مع نفسه ينهض على قدميه فى ألم شديد)** فليكن ما تشائين . اجلسى الى جانبى . أنا ، أيضا ، عجوز . وأنت ، أيتهـا المرأة البائسـة لا تقوين على ملء وعائك . تعالى . **(يأخذ بيديهـا . وفى لمح البصر يختفى من على وجهها قناع الشيخوخة . انها بياتريز . چوان يحملق فيها منتشيا . وفى تلعثم ، اذ يسعى ذهنه الى تلمس الأمور ، يقول)** بياتريز ، العمر ، الشباب انهما نغم الحياة الأبدية . **(ودون أن يلحظ هو . تنفلت**

منه بياتريز وتتلاشى فى الينبوع . يرفع وجهه الى السماء فى فرح شديد) أتى الضوء. الضوء يتسلل الى روحى . **(ثم يرى الشبح يسير ببطء ليتلاشى فى الينبوع)** لم يعد هناك موت . **(يظهر الشبح ثانية داخل الينبوع ، ولكن دون قناع هذه المرة ، والوجه وجه بياتريز ، وقد أصبحت طويلة جليلة تموج بالقوة ، وذراعاها مرفوعتان فوق رأسها ، وبدنها كله مشرئب الى الأعلا ، ومن مصدر الينبوع تنبعث نار شفافة راقصة تطفى عليها وتلفها حتى يصبح شبحها كأنه قلب اللهب . يحملق چوان فى هذا المنظر لحظة ، ثم يسقط على ركبتيه فى سعادة وانتشاء)** فهمت . ينبوع خالد ، زمن لا نهاية له . لهيب الروح يحول الموت ويغيره . كل شىء فى السريرة . كل الأشياء تذوب وتتدفق الى الأبد . يانار الحياة الطامحة ، اكتسحى روح البشر المظلمة ، ولنحترق جميعا فى وحدتك **(يعلو صوت بياتريز بالغناء مزهوا بالنصر)**

الصوت : الله زهرة ،
مونعة أبدا .
الله ينبوع ،
متدفق أبدا .

(تتوقف الأغنية . ويخبو الضوء . ثم يسود الظلام . ويسمع صوت چوان يتهدج بالسعادة)

چوان : يا الهى ، يا ينبوع الخلود ، أنت الكل فى واحد ، الواحد فى الكل ، الصيرورة الخالدة التى هى

الجمـال **(يغيب عن الوعى . صمت . ثم يغمـر ساحة الغابة ضوء الفجر الباهت . ويرى چوان راقدا حيث سقط . يسمع صوت شخص قادم من الغـابة فى المؤخرة ، ويدخـل لويز وراهب دومينيكى خارجين من الغابة)**

لويز : **(يرى چوان)** شكرا لله **(يندفع الى الأمام ، ويركع الى جانب چوان . يتقلب چوان قليلا وهو يتأوه)** انه يتحرك. چوان. أنا لويز. لقد قتل أصدقاؤنا . وهناك قارب من الأسطول ينتظر .

چوان : **(فى نشوة حالمة)** يا الهى ، أنت الـكل . . . .

الراهب : انه يصلى .

لويز : انه فى غيبوبة . فلنحمله . سـنبحر الى أقرب مركز من مراكزنا .

چوان : **(وهم يحملونه)** الضوء . اننى أرى ، وأعلم .

لويز : انه الفجر يا چوان .

چوان : **(فى رضى ونشوة)** الفجر ! **(يحملونه ويخرجون بينما تنزل الستار)**

ســتار

المنظر الحادى عشر

(بعد بضعة أشهر. فناء الدير الدومينيكى فى كوبا . فى الوسط نافورة صغيرة بسيطة ، هى الزينة الوحيدة فى هذه الرقعة المربعة العارية ، تحت أشعة الشمس المحرقة ، وقد أحاط بها ، فى اليسار والمؤخرة جدار أبيض مرتفع ، وفى اليمين بناء الدير نفسه . والمدخل عبارة عن منفذ مقوس عليه صليب من الخشب المحفور . وعلى جانبى الباب كوتان فيهما تماثيل بدائية من الخشب للعائلة المقدسة وللقديس دومينيك . وفى الحائط ، فى الوسط ، باب مقوس آخر فوقه صليب. ويمكن أن نتبين الطبيعة ، ونحس بها ، فيما وراء الجدار ، حية عامرة بالألوان ، تموج بالحياة الاستوائية الفياضة المتعددة الألوان . وأشجار النخيل منحنية على الجدار ، تلقى ظلالها المائسة فى الداخل . والكروم المزهرة قد تسلقت الى القمة وبدأت تزحف هابطة الى الداخل .

السماء فى ساعة الغروب تموج فى عمقها بروعة باهرة .

عندما ترتفع الستار نتبين چوان وكبير الرهبان . چوان نائم متمددا على مقعد من مقاعد المرضى العاجزين ، صنع بطريقة ارتجالية ، وقد تدثر بعباءته ، وجلس فى مواجهة النافورة ، وهو شاحب متغير ، ولكن ملامحه المتعبة قد اكتسبت الآن طابعا جديدا تماما . هدوء الصفاء الروحى العميق . كبير الرهبان رجل ممتلىء الجسم ، له وجه بسيط مستدير ، أشيب الرأس واللحية . عيناه الواسعتان هادئتان كأعين البقر . يفتح باب المؤخرة ويدخل لويز . يغلق الباب خلفه فى حرص ، ويتقدم على أطراف أصابعه)

لويز : **(هامسا)** أهو نائم ؟

كبيرالرهبان: كما ترى أيها الأب .

لويز : **(ناظرا الى چوان)** ما أهدأ وجهه ! كأنما رأى رؤيا تملأ القلب سلاما .

كبيرالرهبان: انها لمعجزة مباركة أن عاش حتى الآن .

لويز : كان ينتظر . **(فى حزن)** والآن . أخشى أن تكون رغبته قد تحققت ، ولكن ليس كما كان يحلم .. وانما هى كأس المر والحنظل .

كبيرالرهبان: (**وقد غمض عليه الأمر**) هل تعنى أن السفينة تحمل له أنباء سيئة ؟

لويز : نعم . ولابد أن أوقظه لأهيىء ذهنه .

كبيرالرهبان: سأتركه لك . لقد حانت صلاة المساء . (**يستدير ويمضي داخلا الدير**)

لويز : (**يلمس ذراع چوان ــ برفقة**) چوان ، استيقظ . (**يفتح چوان عينيه**) لقد رست السفينة .

چوان : من بورتوريكو ؟

لويز : نعم .

چوان : (**وعليه ملامح الثقة ــ فى فرح عظيم**) اذن فبياتريز هنا .

لويز : (**مرتبكا ــ متهربا**) لقد قام الهنود بفتنة فظيعة . وقتل دييجو . (**بسرعة**) ولكن لن أزعجك بهذا . (**ثم ببطء**) بياتريز آتية لتمريضك . (**مؤكدا تحذيره**) أنت أبوها الثانى ، هكذا قالت .

چوان : (**مبتسما**) لا حاجة بك الى التأكيد . أعرف قلبها . (**ثم فى اهتمام**) ولكن لابد أن أطلعها على الحقيقة . (**ثم على نحو من التضرع مطالبا بالضمان**) لهذا كان انتظارى . لكى احدثها عن الحب الذى شعرت به نحوها .. الآن .. مودعا .. فلن تستطيع أن تسىء فهمى . (**فى كبرياء**) لم يكن حبى شيئا عاديا . كانت هذه أول مرة يمس فيها الجمال حياتى . أريد أن أعيش فى ذاكرتها على نحو ما كانت هى بالنسبة الى (**متهاويا ــ وعلى وجهه شبح ابتسامة ، وبصوت ضعيف**) هيا أيها

الصـــديق القديم ، أبلغ بك النسك والتقشف أن تنكر على حقى فى أن أضع هذه المدينة الذهبية ــ المدينة الوحيدة التى فتحتها ــ عند أقدام الجمال ؟

لويز : **(محاولا اقناعه فى عطف ورقة)** الصمت أفضـــل يا چوان . ينبغى أن تتخلى عن . . .

چوان : لقد تخليت عن كل شىء . ولـــكن هل تضن على راحل أن يســـتجدى من الأرض زهرة يحملهـــا تذكارا أخيرا لجمال الدنيا ، حتى يكون فى الوداع عزاء عن الأسى ؟

لويز : **(يزداد ارتباكا)** چوان ، أنا . . أنا أتكلم لأنك . . تعـــذبت . والآن ، لا أريد أن تزداد عذابا أيهـــا الصديق العزيز . **(ينطلق بما عنـــده فجأة)** هذه الســـفينة تحمل اليك مفاجأة . أن ابن أخيك ، چوان ، قد وصل من أســـبانيا . وهو قادم من پورتوريكو لتحيتك .

چوان : **(فى ابهام)** ابن اخى ؟ **(تسمع أصوات من داخل الدير)** بياتريز ! **(يظهر كبير الرهبان عند المدخل يعلن قدوم بياتريز وابن أخ چوان ، تتبعهما وصيفة بياتريز وخادم ابن الأخ ، حاملا عباءة سيده وعوده . يظل هذان ، أثناء المنظر القادم ، واقفين بالباب فى احترام بعض الوقت ، ثم يدخلان الدير ، بعد أن يترك الخادم العبـــاءة والعود على الأرض بجـــانب المدخل . ينسحب كبير الرهبـــان على الفـــور ، وينسحب لويز أيضا بعد أن يشد على يد چوان ، متبادلا التحيـــة مع الزائرين عند مروره بهما .**

بيـاتريز تموج بالرضى ، ومن الواضح جدا أنها فى حالة غرام عميق . اما هو ففارس شـاب رشيق نحيل ، يرتدى ثيابا فاخرة)

بياتريز : **(تتوقف لحظة وعليها ملامح التعجب حينما ترى وجه چوان الذابل ، ثم تندفع وتلقى بنفسها راكعة على ركبتيها الى جوار المقعد . تقـول فى عجلة)** دون چوان . أوه يا للسعادة ، أن أجدك .. وقد شفيت من جراحك . سأصلى لله شكرا . **(تقبله بحركة اندفاع لا ارادية)**

چوان : **(يكاد يخنقه الاغتباط ، فلا يقول سـوى كلمـة واحدة)** بياتريز .. بياتريز !

ابن أخيه : **(يركع ويقبل يد چوان . ينتبه چوان ، ثم يأخذ فى تفحص وجهه بتمعن ، وقد توجس مما يبدو أن الآخر أيضـا قد تبينه)** أحييك يا سـيدى ، وأرجو أن يمن الله عليك بالقوة عاجلا .

چوان : **(فى ضعف)** عاجلا .. سأكون قويا .. رغم كل الجروح **(بعد فترة)** اذن فاسمك چوان ، أيضا ؟

ابن أخيه : تشرفا بك . ومع أننى لن أستطيع أن ازيد الاسم شرفا ، الا أننى آمل أن أحمله عن جدارة .

چوان : **(فى نبرة دعاء تتسرب الى صـوته)** أجئت هنـا سعيا وراء المخاطر ؟

ابن أخيه : جئت فى خدمة أسبانيا .

چوان : **(بصـوت أجش)** لابد أن يكون لك قلب فولاذى كسيفك . هل لك هذا القلب ؟

بياتريز : **(بحماس ، مع شعور بالألم للطريقة التى استقبلهما**

بهـا چوان) أوه ، انه شـجاع . كان چوان هو الذى قاد المدافعين عنـدما حاول الرعاع الهجوم على القصر .

چوان : **(يزداد اهتيـاجا ـ ويحاول أن يخفى كراهيته تحت قنـاع من التودد)** هذا عمـل من أعمـال الشجاعة . ولـكنك ، دون شـك ، قد سمعت اقاصيص عن جبال من الجواهر .. ومدن الذهب فى كاثاى . هل تطمع فى أن تصبح غنيا ؟

ابن أخيه : أنا لا أحفل بالغنى ، أما عن المدن الذهبية فلا أريد الا أن أرفع أعلام أسبانيا على قلاعها .

چوان : **(وقد أوحى اليه بالاحترام رغما عنه)** هذه أحلام مجيدة . انه الصدى تحمله ريح السنين .

بياتريز : **(ناظرة الى چوان الصغير بفخر كبير ، اذ يتفحص چوان وجهه)** انه كما كنت أنت فى أقاصيص أمى .
(هى والشاب ، يتعلق نظر كل منهما بالآخر)

چوان : **(بعد نضـال مع مرارته ـ يقول بلهجة تسـليم بالقدر)** وهكذا ... قلب عجوز ... صامت .
(مستنهضا نفسه ـ يقول بعمق وقوة) ولكن فى فرح ، فى فـرح **(ينظر اليـه فى توجس حائر ويبتسم هو فى رقة لبيـاتريز)** اذن فقد وجدته أخيرا .. وجدت شبيهى ؟

بياتريز : **(تحمر خجلا ، وتقول فى ارتباك)** لست .. لست أدرى يا دون چوان .

چوان : اذن فأنا أدرى **(متأملا فى شىء من الحزن)** لقد فوت على آخر عمـل كنت أنوى القيام به . كانت عند

الرجل العجوز قصة ليرويها لك — قصة شجاعة رائعة . ولكنه يرى الآن أنه اذا لم يستطع الشباب أن يكتم سره ، فان على الشيخوخة أن تحتفظ بأسرارها . شبح هرم حزين يطارد ذكرياتكما ! يا لها من هدية زواج كئيبة ! **(ينظر كل منهما الى الآخر ثانية فى شعور من الغموض والتوجس ، ثم يرفع چوان بصره اليهما فجأة ويقول فى وضوح ودون مواربة)** أنتما متحابان . **(ثم يمضى سريعا بلهجة محمومة)** عفوا . . . أنا جندى خشن . ولابد من العجلة . أسرعا . . الا تطلبان منى أن أبارككما ؟

بياتريز : **(تخر على ركبتيها الى جواره — تقول فى سعادة)** نعم ، نعم ، أيها الدون چوان الكريم . **(ويركع ابن أخيه الى جانبها)**

چوان : **(يرفع يديه فوق رأسيهما)** ياشباب هذه الأرض ، الحب . مرحى . ووداعا . . الا فلتكونا مباركين على الدوام **(يلمس رأسيهما بيديه ثم يتهاوى مغمضا عينيه . ينهضان ويقفان ينظران اليه غير واثقين)**

ابن أخيه : **(بعد فترة — فى همس)** انه يريد أن ينام .

بياتريز : **(اذ يسيران ، تقول فى همس ، والدموع فى عينيها)** آوه چوان ، أنا خائفة . ولكن . . مع ذلك . . ، لست حزينة .

ابن أخيه : **(يضمها بين ذراعيه بقوة)** حياتى ، روحى . **(يقبلها)**

بياتريز : غرامى .

ابن أخيه : الحياة جميـلة . الأرض تغنى لنـا . فلنغن نحن ايضا (**يذهب الى حيث العود ويلتقطه**)

بياتريز : (**فى سعادة**) نعم (**ثم تتذكر**) شش (**وتشير الى چوان**)

ابن أخيه : (**يحثها**) انه نائم . نستطيع أن نخرج بعيدا وراء الجدران . (**يطوقها بذراعه ويذهب بها خارجا من الباب فى المؤخرة**)

چوان : (**يفتح عينيـه ، وينظر خلفهما ، وعلى شـفتيه ابتسامة حانية**) نعم ، اذهبا حيث الجمال . غنيا .

(**ومن الخارج يسمع صـوت بياتريز وابن أخيه يغنيان معا أغنيتهما للينبوع**)

الحب زهرة ،
دائما مزدهرة .
الجمال ينبوع ،
دائما يتدفق ،
الى العلا ، الى مصدر الشمس ،
الى أعلا ، الى السماء اللازوردية ،
يتحد مع الله ،
ولكن يعود دائما ،
ليقبل الأرض كى تعيش الأزهار .

چوان : (**يستمع فى نشوة ، ثم يحنى رأسه ، ويبكى . ثم يغوص برأسه الى الوراء فى مقعده متعبا وعيناه مغمضتان . يدخل لويز قادما من الدير**)

لويز : (**يتقدم فى سرعة متوجسا**) چوان ! (**يبلغه صوت الأغنية ، ويبـدو عليه السخط**) هل فقـدأ كل

مشاعرهما ؟ سأوقف ... **(يهم نحو الباب)**

جوان : **(فى صوت رنان)** لا . أنا هذه الأغنية . على المرء أن يتقبل ، ويستوعب ، ويرد ، ويصبح هو نفسه رمزا . جوان بونس دى ليون قد أصبح الماضى . تحول الى وجوه الجمال الألف التى تصنع السعادة : لون الغروب ، وفجر الغد ، وأنفاس الرياح العظمى ، وضوء الشمس على الحشائش ، وأغنية الهوام ، وحفيف الأغصان ، وأطماع النملة ! **(فى نشوة)** آه يا لويز ! لقد بدأت أتبين الشباب الأبدى . لقد وجدت ينبوعى . أيا ينبوع الخلود ، استعد هذه النقطة ، روحى . **(يموت . لويز يحنى رأسه ويبكى)**

كبير الرهبان : **(يدخل من اليمين)** صلاة المساء **(فى صوت ارتياع ، اذ يحملق فى جوان)** هل مات ..؟

لويز : **(وقد تنبه ـ فى روح عالية)** لا . بل يعيش فى الله . فلنصل . **(يخر لويز على ركبتيه الى جانب جثة جوان ، وكبير الرهبان الى جانبه يرفع عينيه ويديه المضمومتين الى السماء ويصلى بتبتل . وتبدو أصوات بياتريز وابن الأخ فى أغنية النافورة ، كأنها تصعد الى قمة عالية منتشية ، ثم ترتفع صلاة الراهبين فى عمق وحيوية ، وتندمج الأصوات فى انسجام يملأ الجو ، شاملا كل شىء ، متغنيا بسر الحياة بينما تنزل الستار)**

ستار الختام

صـــدر من هذه المـكتبة :

١ ـ الأحرار

للكاتب الأمريكى : سدنى كنجزلى
ترجمـــة : عبد الحليم البشلاوى

٢ ـ الرجل العجوز

للكاتب الروسى : ماكسيم جوركى
ترجمـــة : عبد الحليم البشلاوى

٣ ـ بيت الدمية

للكاتب النرويجى : هنريك ابسن
ترجمـــة : كامل يوسف

مكتبة الفنون الدرامية

تحت الطبع :

قطة على سطح من الصفيح الساخن

للكاتب الأمريكى : تنيسى وليامز

ترجمة : عبد الحليم البشلاوى



دار مصر للطباعة
٣٧ (أ) شارع كامل صدقى الفجالة

الثمن : ٢٠ قرشا